الدراية
مجلة علمية محكمة
تصدرها كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بدسوق

الأَعــراب في القــرآن

(دراسة موضوعية)

إعداد

د/ نور محمد علي إبراهيم مكاوي

أستاذ مساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين والدعوة

فرع جامعة الأزهر بالزقازيق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِ الله فهو المهتد ، ومن يُضلِل فلن تجد له وليًّا مرشدًا ، ونصلِّي ونسلِّم على خاتَم النبيين سيِّدنا محمَّد ، وعلى آله وصحبه أجمعين . **أمَّا بعد :**

فلقد تحدث القرآن الكريم عن أصناف متعددة من الناس في عصور مختلفة ، وسجَّل لنا كثيرًا من مواقفهم ، وأفعالهم ، وصفاتهم ، وغير ذلك من أحوالهم ، ولقد كان ميزانه في ذلك دقيقًا ، ومعياره حكيمًا ، فلم يشغله الحديث عن صنف من الناس دون آخر ، سواء كانوا عربًا ، أم عجمًا ، بدوًا كانوا أم حضرًا .

ولقد مدح من مدح ؛ لفعله ما يستحق به المدح ، وذمّ مَن ذمّ ؛ لارتكابه ما يوجب الذم ، ولم يتقول على أحد ، ولم يصف أحدًا بغير ما فيه ، فما قصّر في المدح ، ولا بالغ في الذم ، ولا العكس ، ولا عجب من ذلك ، فهو كتاب الله الناطق بالحق الذي أنزله على سيِّد الورَى ، وما كان حديثًا يُفتَرى .

ومن بين الأصناف التي تحدث القرآن عنها صنف من صنوف المجتمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ألا وهو جنس الأعراب الذين يمثلون نموذجًا حيًّا من نماذج المجتمع في العهد النبوي ،كان منهم المؤمن ، والمنافق والكافر ، وكانت لهم أحوال ومواقف ، ومساوئ ، ومحاسن ، سجلها القرآن الكريم لنا لتظل صورهم عالقة في الأذهان ، وعبرة يعتبر بها مدى الزمان .

وحول هذا الصنف يدور موضوع هذا البحث الذي سميته : « الأَعراب في القرآن – دراسة موضوعية ».

أسباب اختيار الموضوع وأهميته :

١- لم يفرد هذا الموضوع بدراسة قرآنية فيما اطلعتُ عليه .

٢- جمْع الآيات التي ورد فيها الحديث عن الأعراب ، ودراستها دراسة موضوعية .

٣- التعرف على صفات طائفة من الناس تحدث القرآن عنها في عدد من آياته .

٤- بيان معيار ذم الأعراب أو مدحهم في القرآن الكريم .

هذا ، وقد قسمتُ البحث إلى : مقدمة ، وتمهيد ، وخمسة مباحث، وخاتمة .

المقدمة :وتشتمل على أسباب اختيار الموضوع، وأهميته ، وخطة البحث .

التمهيد : التعريف بالأعراب .

المبحث الأول : الصفات العامة لكفّار الأعراب ومنافقيهم .

المبحث الثاني : أصناف الأَعراب . ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : الأعراب المنافقون .

المطلب الثاني : الأعراب المؤمنون .

المبحث الثالث : الأعراب وتخلفهم عن الحديبية وتبوك . ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول:الأعراب وتخلفهم عن الحديبية،وطلبهم الخروج إلى خيبر.

المطلب الثـاني : الأعراب وغزوة تبوك .

المبحث الرابع : ادِّعاء الأعراب الإيمان ، ومنّهم على الرسول صلى الله عليه

وسلم . ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول: ادعاء الأعراب الإيمان، ورد القرآن عليهم .

المطلب الثاني : منّ الأعراب على الرسول بإسلامهم ، وردّ القرآن عليهم.

المبحث الخامس: معيار ذم الأعراب أو مدحهم ، ومنهج القرآن في ذلك .

الخاتمة : وتشتمل على أهم نتائج البحث ، ثم المصادر والمراجع .

أسأل الله عزّ وجلّ أن يتقبل مني هذا العمل ، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د/ نور محمد علي مكاوي

التمهيد :

التعريف بـ« الأَعْراب »

يُطلق لفظ أَعرابيّ في اللغة : على ساكن البادية الذي يتتبع مساقط الغيث ، ومنابت الكلأ .

يُقال : رجل عربيّ : إذا كان نسبه في العرب ، وجَمْعه العرب . ورجل أَعرابيٌّ، إذا كان بدويًّا يسكن البوادي ، وجمع أَعرابيّ : « أَعراب » و« أَعاريب » .

ففي الصحاح للجوهري : العربُ جيل من الناس ، والنسبة إليهم عَرَبيّ ، وهم أهل الأمصار . والأَعراب منهم سُكّان البادية خاصَّة ، وَالنِّسْبَة إلى الأَعراب أَعْرَابِيّ ؛ لأنه لا واحد له ، وليس الأعراب جمعًا لعرب [١].

وفي القاموس المحيط : العرب : خلاف العَجَم ، وهم سُكَّانُ الأمصار، أو عامٌّ . والأَعْرابُ منهم : سُكَّانُ البادية ، لا واحدَ له ، ويُجْمَعُ : أعاريبَ [٢] .

وفي تهذيب اللغة قال الأزهريّ : رجل عربيّ إِذا كَانَ نسبه فِي الْعَرَب ثَابتًا وَإِن لم يكن فصيحًا ، وَجمعه العَرَب ، كمَا يُقَال: رجل مجوسيّ ويهوديّ ، والجمع بِحَذْف ياء النِّسْبة: المجوس وَالْيَهُود .

وَرجلٌ أَعرابيٌّ – بِالألف– إِذا كان بدويًّا صَاحب نُجْعة وانتواء وارتياد للكلأ وتتبّع لمساقط الغَيْث، وَسَوَاء كَانَ من الْعَرَب أَو من مواليهم . وَيجمع الأعرابيّ على الْأَعْرَاب والأعاريب .

والأعرابيّ إِذا قيل له : يَا عربيّ فَرِح بِذَاكَ وهَشّ لَهُ . والعربيّ إِذا قيل له: يَا أعرابيّ غضِب لَهُ . فَمن نزل الْبَادِيَة أَو جاور البادين وظَعَنَ بظَعنهم

---

(١)الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١/ ١٧٨) ، وينظر : مختار الصحاح (ص: ٢٠٤) .

(٢)القاموس المحيط (ص: ١١٣) ، وينظر : الزاهر في معاني كلمات الناس للأنباري (٢/ ٥٦) .

وانتوى بانتوائهم فهم أَعْرَاب، وَمن نزل بِلَاد الرِّيف واستوطن المدن والقُرَى العَرَبيَّة وَغَيرهَا مِمَّا ينتمي إِلى العَرَب فهم عرب وَإِن لم يكُونُوا فصحاء [١] .

هل هناك فرق بين العرب ، والأعراب ؟

هناك بعض أقوال لأهل اللغة وغيرهم تدور حول هذه المسألة ، وباستقرائها يمكننا أن نرجعها إلى قولين :

القول الأول : أنه لا فرق بين العرب ، والأعراب ، فالأعراب جمع العرب [٢].

القول الثاني : أن هناك فرقًا بين العرب والأعراب ، فقيل : العرب سكان المدن والقرى العَرَبِيَّة ، أما الأعراب : فلفظ يُطلق على كل من سكن البادية من عرب وعجم [٣].

وقيل : العرب الجيل المعروف من الناس ، والأعراب سكان البادية منهم [٤].

---

(١)تهذيب اللغة (٢/ ٢١٨) ، وينظر : لسان العرب (١/ ٥٨٦) .

(٢) ينظر : تهذيب اللغة (٢/ ٢١٨) ، والمفردات (ص: ٥٥٦) ، وحاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي (٤/ ٣٥٦)، والتفسير الحديث (٩/ ٥١٩) ، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د/ جواد علي (ت: ١٤٠٨هـ) (١/ ٢٣) وما بعدها . [ط/ دار الساقي ، ط/ رابعة ١٤٢٢هـ] .

(٣) الكليات لأيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت: ١٠٩٤هـ) (ص: ٦٤٢) [ط/ مؤسسة الرسالة – بيروت] . وينظر : تهذيب اللغة (٢/ ٢١٨) ، ولسان العرب (١/ ٥٨٧) ، وروح المعاني (٦/ ٦) ، وروح البيان (٣/ ٤٨٩) .

(٤) ينظر: تهذيب اللغة (٢/ ٢١٨) ، والزاهر في معاني كلمات الناس للأنباري (٢/ ٥٦) ، ومختار الصحاح (ص: ٢٠٤) ، وشرح المفصل للزمخشري، ليعيش بن علي بن يعيش الموصلي (ت: ٦٤٣هـ) (٣/ ٤٧) . [ط/ دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ،ط/ أولى، ١٤٢٢ هـ]، وإرشاد العقل السليم (٤/ ٩٥)، والمفصل في تاريخ العرب (١/ ٢٣).

وسُمي العرب عربًا ؛ لأنهم نشأوا بعربة ، وأولاد إسماعيل عليه السلام نشأوا بها، فنسبوا إلى بلدهم .أو نسبة إلي يَعْرُب بن قَحْطان ، وهو أبو اليَمن كلّهم [١] ، أو لأن ألسنة العرب معربة عمَّا في ضمائرهم ، فاللسان العربي مختص بأنواع من الفصاحة والجزالة لا توجد في سائر الألسنة [٢].

والأكثرون على الفرق بين العَرب ، والأَعراب ، وأن الأَعراب هم سكان البادية من العرب . قال الإمام الرازي : والذي يدل على الفرق وجوه :

الأول : روي أن النبي عليه السلام قال : «حُبُّ العرب من الإيمان» [٣].

وأما الأعراب فقد ذمهم الله تعالى بقوله : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا... ﴾ [٤] .

والثاني: أنه لا يجوز أن يقال : للمهاجرين والأنصار أعراب ، إنما هم عرب، وهم متقدمون في مراتب الدِّين على الأَعراب ، قال عليه السلام : « أَلَا لَا تَؤُمَّنَّ امْرَأَةٌ رَجُلًا، وَلَا يَؤُمَّ أَعْرَابِيٌّ مُهَاجِرًا .. » [٥] [٦].

---

(١) لسان العرب (١/ ٥٨٧) .

(٢) التفسير الكبير (١٦/ ١٢٥) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٩٧) ، حديث رقم : ٦٩٩٨ ، ولفظه : «حب العرب إيمان وبغضهم نفاق» وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وردَّه الذهبي بقوله : الهيثم متروك ، ومعقل ضعيف . .وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٦٠) ، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٣/ ٣٤٠) وقال : ضعيف .

(٤) سورة التوبة ، من الآية : ٩٧ .

(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن (١/ ٣٤٣) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٢٨) ، وقال : هذا حديث في إسناده ضعف ، وقال الألباني : رواه ابن ماجه عن جابر مرفوعا ، وهو ضعيف . إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٢/ ٣٠٣)، [ط/ المكتب الإسلامي – بيروت ، ط ثانية ١٤٠٥ هـ].

(٦) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٢٥) ، واللباب (١٠/ ١٧٩) ، وروح البيان (٣/ ٤٨٨) ، وشرح مختصر خليل لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الخرشي المالكي (ت: ١١٠١هـ) (١/ ٢٧) [ط/ دار الفكر للطباعة – بيروت].

وقال الأزهري: والذي لا يُفرِّق بين العرب والأَعراب ، والعربيّ والأَعرابيّ ربما تحامل على العرب بما يتأوله في الآية [١] وهو لا يميّز بين العرب والأعراب .

ولا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار: أعراب ، إنما هم عرب ؛ لأنهم استوطنوا القرى العربية وسكنوا المدن [٢] .

أقول : ومما يدل على الفرق :

١- ما رواه البخاريّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لاَ تَغْلِبَنَّكُمُ الأَعْرَابُ على اسْمِ صَلاَتِكُمُ المَغْرب » قال: ويقولُ الأعرابُ : هي العشاء [٣] .

وهذا يدل على الفرق بين الأعراب والعرب ، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة الكرام عن موافقة الأَعراب في تسميتهم المغرب بالعشاء [٤] .

٢- وما روي عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالتْ لرسُول اللَّه صلى الله عليه وسلم : أَلَمْ تَقُلْ : «لَا أَقْبَلُ هَدِيَّةً مِنْ أَعْرَابِيٍّ » ؟ فَقَالَ: «إِنَّ

---

(١) أي قوله تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩٧] .

(٢) تهذيب اللغة (٢/ ٢١٨) ، وينظر : المفصل في تاريخ العرب (٢٩٨/٧) .

(٣) صحيح البخاري (١/ ١١٧) كتاب : مواقيت الصلاة ، باب : من كره أن يقال للمغرب العشاء ، رقم: ٥٦٣ ، وصحيح مسلم (١/ ٤٤٥) ، كتاب : المساجد ومواضع الصلاة ، باب : وقت العشاء وتأخيرها ، رقم : ٦٤٤ .

(٤) لأنّ الله تعالى سماها مغربا ولم يسمها عشاء ، وتسمية الله تعالى أولى من تسميتهم . ينظر : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١/ ٥٠١) .

أَعْرَابَ أَسْلَمْ لَيْسُوا بِأَعْرَابٍ، وَلَكِنَّهُمْ أَهْلُ بَادِيَتِنَا، وَنَحْنُ أَهْلُ حَاضِرَتِهِمْ... » [١] .

٣- وما روي أن عمر (رضي الله عنه) قال في وصيته للخليفة من بعده : « وأوصيه بأهل الأمصار خيرًا ، فإنهم رِدْءُ الإسْلَام وجُبَاةُ المَال وَغَيْظُ العَدُوِّ.. وأوصيه بالأعراب خيرًا » [٢] .

قال الحافظ ابن حجر : وقد استوفى عمر في وصيته جميع الطوائف ؛ لأن الناس إمّا مسلم وإمّا كافر .. وكلهم إمَّا بدوي وإمَّا حضري ، وقد بيّن الجميع [٣].

٤- أن الله شرَّف العرب بنزول القرآن فيهم وبلغتهم ، فلو كان المراد بالأَعراب العرب لما استقام هذا ، فكيف يذمّهم في القرآن الذي نزل فيهم ، وشرَّفهم به ، ويصفهم بأنهم أشد كفرًا ونفاقًا ؟

هل هناك فرق بين البَدو ، والأَعراب ؟

لم أجدْ من نصَّ على هذه المسألة – فيما اطلعتُ عليه – إلا بعض إشارات بسيطة ، وأقاويل متناثرة على ألسنة البعض [١] ، ولكن أستطيع

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٧١) ، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . وأبو يعلى في المسند (٨/ ٢٠٩) حديث رقم : ٤٧٧٣ . [مسند أبي يعلى الموصلي (ت: ٣٠٧هـ) ، ط/ دار المأمون للتراث – دمشق ط/ أولى، ١٤٠٤هـ] ، والبيهقي في شعب الإيمان (١١/ ٣٠٥) حديث رقم : ٨٥٧٢ ، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦/ ١٢١٤) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ١٦)كتاب : أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، باب : قصة البيعة .. رقم : ٣٧٠٠ ، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٥٩) ،حديث رقم : ١٦٥٧٩ .

(٣) فتح الباري (٧/ ٦٨) باختصار .

القول أن كثيرًا من العلماء ساروا في شروحهم في التفسير ، وغيره ، على عدم الفرق بين البدو والأعراب ، ومن ذلك :

قال الزمخشري : الأَعْراب هم أهل البدو [٢] . وقال ابن عاشور : الأعراب : سكان البادية من العرب [٣] . وقال أبو بكر الأنباري : الأعراب : هم أهل البادية [٤].

وقال الإمام النووي : أهل البادية هم الأعراب ، ويغلب فيهم الجهل والجفاء [٥] .

أقول : ولعلَّ قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ ﴾[٦] فيه دلالة على أنه لا فرق بينهما ، فمعنى : ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأعْرَابِ ﴾ ، أي : لو أنَّهم مقيمون في البادية ، فـ(بادُونَ) : جمع باد ، وهو ساكن البادية [٧] .

يقول الطبري : قد بَدَا فلان إذا صار في البَدو ، هو يبدو، وهو باد . وأمَّا الأعراب : فإنهم جمع أعرابيّ، وواحد العرب عربيّ ، وإنما قيل :

---

(١)خاصة على شبكة الإنترنت ، (التواصل الاجتماعي) وغالبها إما آراء شخصية أو غير منسوبة . ينظر منها: w ww.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=٨١٧٤٥

(٢) الكشاف (٢/ ٣٠٣) ، وينظر : إرشاد العقل السليم (٤/ ٩٥) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٦٤) .

(٤) الزاهر في معاني كلمات الناس (٢/ ٥٦) ، وينظر: تهذيب اللغة (٢/ ٢١٨) ، وجامع البيان (٢٠/ ٢٣٤) ، والمحرر الوجيز (٥/ ١٣٠) ، وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٢) ، وفتح الباري (١/ ١٥٤) .

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٦٩) .

(٦) سورة الأحزاب من الآية : ٢٠ .

(٧) ينظر : البسيط للواحدي (١٨/ ٢١١) ، وتهذيب اللغة (١٤/ ١٤٣) ، والمفردات (ص: ١١٣) ، والدر المصون (٩/ ١٠٧) ، وتاج العروس (٣٧/ ١٤٩) .

أعرابيّ لأهل البدو، فرقًا بين أهل البوادي والأمصار، فجعل الأعراب لأهل البادية ، والعرب لأهل المصْر [١].

- وهناك بعض الروايات يدل ظاهرها على عدم الفرْق ، منها :
- ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إِنَّ أَعْرَابَ أَسْلَمْ لَيْسُوا بِأَعْرَابٍ ، وَلَكِنَّهُمْ أَهْلُ بَادِيَتِنَا ..» [٢] .
- وما أخرجه الشيخان عن سلمة بن الأَكْوَعِ، أَنَّه دخل على الحجَّاج، فقالَ: يَا ابْنَ الْأَكْوَعِ، ارْتَدَدْتَ على عَقِبَيْكَ[٣] ؟ تَعَرَّبْتَ [٤] ؟ قال : « لا، ولكنْ ولكنْ رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَذِنَ لي في الْبَدْو» [٥].

فقول الحجَّاج : «تعربت» ، وردّ سلمة عليه : « لا ، ولكن رسول الله أذن لي فِي البدو» معناه: لم أسكن البَادِيَة رُجوعًا عن هجرتي ، أَي: فِي الإِقامة في البادِية [٦]. وهذا يدل على عدم الفرق .

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٢٣٤) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) معنى : « ارتددت على عقبيك » ؟ أي: خرجت من دار هجرتك من غير عذر؟ وكانوا يعدّون هذا كالمرتد : ينظر : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٠/ ١٨٦) .

(٤) التعرب : أي السكنى مع الأعراب في البادية ، وهو أن ينتقل المهاجر من البلد التي هاجر منها فيسكن البدو ، فيرجع بعد هجرته أعرابيًّا ، وكان إذ ذاك محرما ، إلا إن أذن له الرسول صلى الله عليه وسلم . ينظر: فتح الباري (١٣/ ٤١) ، وشرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٦) ، ولسان العرب (١/ ٥٨٨) ، وروح المعاني (٦/ ٦) .

(٥) صحيح البخاري (٩/ ٥٣) كتاب : الفتن ، باب : التعرب في الفتنة ، حديث رقم : ٧٠٨٧ ، وصحيح مسلم (٣/ ١٤٨٦) ، كتاب : الإمارة ، باب : تحريم رجوع المهاجر إلى استيطان وطنه ، حديث رقم : ١٨٦٢ .

(٦) ينظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، لبدر الدين العينى (ت: ٨٥٥هـ) (٢٤/ ١٩٧) [ط/ دار إحياء التراث العربي ، بيروت]، وإرشاد الساري (١٠/ ١٨٦) ، والصحاح تاج اللغة (٦/ ٢٢٧٨) .

وقيل : البدو هُمْ كل من سكن البادية ، فكل قوم اتخذوا الرعي وتتبعوا الكلأ وسكنوا الخيام فهم بدو ، ولو لم يكونوا من العرب . أمَّا الأَعراب : فهم بدو العرب خاصة [١] .

وقال ابن تيمية : الأعراب في الأصل : اسم لبادية العرب ، فمن نزل بها يسمى أعرابيّ ، فإن كل أمّة لها حاضرة وبادية ، فبادية العرب : الأعراب ، ويقال : إن بادية الروم : الأرمن ونحوهم ، وبادية الفرس: الأكراد ونحوهم ، وبادية الترك التتار [٢].

ولعلَّ قوله : ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾[٣] ، يدلّ على هذا ، وذلك على أشهر الأقوال الواردة في المراد بـ﴿ البَدْو﴾ وهو أن المراد به البادية ، لأن يعقوب وولده كانوا أهل عُمد وأصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجع [٤].

فإنْ قيل : كيف جاز أن يكون يعقوب وولده من البدو ، ولم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية ؟ فيُجَاب على هذا : بأنهم كانوا من أهل المدن ، وأنّ يعقوب عليه السلام تحوّل إلى البادية بعد النبوّة ، وكانوا يخرجون إلى

---

(١) ينظر : تهذيب اللغة (٢١٨/٢) ، والصحاح تاج اللغة (٦/ ٢٢٧٨) ، والزاهر في معاني كلمات الناس (٢/ ٥٦) ، والمفردات (ص: ٥٥٦) ، والمحرر الوجيز (٥/ ١٣٠) ، ومختار الصحاح (ص: ٢٠٤) ، ولسان العرب (١/ ٥٨٦) ، والمصباح المنير (٢/ ٤٠٠) ، والتحرير والتنوير (٢٦/ ٢٦٤) .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) (١/ ٤١٨) بتصرف ، [ط/ دار عالم الكتب، بيروت، لبنان ، ط/ سابعة، ١٤١٩هـ] ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٦٤) .

(٣) سورة يوسف من الآية : ١٠٠.

(٤) البسيط للواحدي (١٢/ ٢٥٢) ، والكشاف (٢/ ٥٠٦) ، وتفسير القرطبي (٩/ ٢٦٧) ، ومفاتيح الغيب (١٨/ ٥١٣) ، ولباب التأويل (٢/ ٥٥٧) ، والبحر المحيط (٦/ ٣٢٨) .

البدو بمواشيهم ، وكان مجيئهم إذ ذاك منه . وقيل :لأن ذلك البُدُوَّ لم يكن في أهل عمود ، بل في منازل وربوع . وقيل : إنما جعله بُدوا بالإضافة إلى مِصْر [١].

وعلى كلٍّ: فالله أعلم بحقيقة الحال ، والحديث عن هذه المسألة هنا من باب التتمة للبحث ، وسيتضح المعيار الوحيد الذي به المدح أو الذم ،كما سنرى إن شاء الله تعالى في ثنايا البحث ، ومَن أراد أن يبحث عن نسبٍ فالإسلام أعظم نسب ، ومن أراد الأفضلية على غيره فبتقوى الله ، قال تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [٢].

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٢٨٦) ، والبحر المحيط (٦/ ٣٢٨) ، وحاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي (٥/ ٢٠٧) .

(٢) سورة الحجرات من الآية : ١٣ .

المبحث الأول

الصفات العامة لكفّار الأعراب ومنافقيهم

جاء الحديث عن الصفات العامة لكفار الأعراب ومنافقيهم في سورة التوبة ، وصف الله تعالى الأَعراب فيها بثلاثة أوصاف :

أولها : أنهم أشد كفرًا . وثانيها : أنهم أشد نفاقًا . وثالثها : أنهم أجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

قال تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١).

المناسبة : لما ذكر الله عز وجل أحوال بعض العرب وشدة المنافقين بالمدينة – ذكر من كان خارجًا منها ونائيًا عنها من الأَعراب ، فقال كفرهم أشدّ (٢).

وقد بدأ سبحانه بوصف كفر الأعراب ونفاقهم ، وذكر المنافقين منهم قبل المؤمنين ، إلحاقًا لهم بمنافقي المدينة الذين تحدثت السورة عنهم قبل ذلك مباشرة .

وقد ذكرتْ جانبًا من الأحوال القبيحة ، لمنافقي الحضر وردّت على معاذيرهم الكاذبة ، وأيمانهم الفاجرة بما يفضحهم ويخزيهم، وتوعدتهْم بسوء العاقبة في الدنيا والآخرة ، ثم بعد الحديث الطويل عن النفاق والمنافقين ،ذكرت نفاق أهل البدو ، وبهذا الترتيب الحكيم تكون السورة الكريمة قد واصلت الحديث عن منافقي الحضر والبدو (٣) .

والمراد بـ ﴿ الْأَعْرَاب ﴾ **هنا** : جنس الأعراب ، لا كل واحد منهم ؛ لأن الله تعالى قد مدح بعضًا منهم بقوله : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

---

(١) سورة التوبة من الآية : ٩٧ .

(٢) ينظر : تفسير القرطبي (٨/ ٢٣١) ، وتفسير المراغي (١١/ ٧) .

(٣) ينظر : الوسيط (٦/ ٣٨٦) .

الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ...﴾ [١] ، فالآية الكريمة من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده [٢] .

الوصفان الأول والثاني : قوله تعالى : ﴿ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ [٣] .

اختُلف في لفظ :﴿ أَشَدُّ ﴾ **فقيل** : ﴿ أَشَدُّ ﴾ اسم تفضيل ولم يذكر معه ما يدل على مفضل عليه، فيجوز أن يكون على ظاهره ، فيكون المفضل عليه أهل الحضر .

فازدياد الأعراب في الكفر والنفاق هو بالنسبة لكفار ومنافقي المدينة . ومنافقوهم أشد نفاقًا من منافقي المدينة . وهذا الازدياد راجع إلى تمكن الوصف من نفوسهم ، أي كفرهم أمكن في النفوس من كفر كفار المدينة ، ونفاقهم أمكن من نفوسهم كذلك ، وذلك أن غلظ القلوب وجلافة الطبع تزيد النفوس السيئة وحشة ونفورًا [٤].

ويجوز أن يكون : ﴿ أَشَدُّ ﴾ مسلوب المفاضلة مستعمل لقوة الوصف في الموصوف به على طريقة قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [٥].

وحيث لم يذكر المفضل عليه يكون المعنى أنه كفر بلغ أقصاه وأشد أحواله ، فهو كُفر يلتقي فيه الجحود ، والجهل الشديد ، والغلظة الجافية [٦].

فالمعنى أن كفرهم شديد من نفوسهم ونفاقهم كذلك ، من غير إرادة أنهم أشد كفرًا ونفاقًا من كفار أهل المدينة ومنافقيها [١].

---

(١) سورة التوبة من الآية : ٩٨ .

(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ٩٥) . وينظر: المحرر الوجيز (٣/ ٧٣) ، والتفسير الكبير (١٦/ ١٢٥) ، والبحر المحيط (٥/ ٤٩١) ، والوسيط (٦/ ٣٨٦)، وروح المعاني (٦/ ٦) .

(٣) سورة التوبة من الآية : ٩٧ .

(٤) التحرير والتنوير (١١/ ١١) بتصرف .

(٥) سورة يوسف من الآية : ٣٣ .

(٦) التحرير والتنوير (١١/ ١٢) .

الوصف الثالث : قوله تعالى: ﴿ وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾

﴿وَأَجْدَرُ﴾ معطوف على :﴿ أَشَدّ ﴾ لتعديد صفاتهم المشينة ، ومعنى: ﴿وَأَجْدَرُ﴾ : أَوْلى ، وأخلق ، يُقال: أنت جدير أن تفعل كذا ، وبأن تفعل كذا ، كما تقول : أنت خليق أن تفعل ، أي هذا الفعل ميسَّر فيك [٢].

السبب في كون الأعراب :﴿ أَشَدُّ كُفْرًا ونفاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ :

١- أنهم بعيدون عن سماع التنزيل ، وعن تلقي الهدي النبوي ومعرفة السنن ، وعن مخالطة أهل العلم ، ومعرفة الشريعة والأعمال والفرائض ، وغير ذلك من أحكام الشريعة التفصيلية [٣].

٢- أنهم أقسى قلبًا ، وأجفى قولاً ، وأغلظ طبعًا : وذلك لأن ظروف حياتهم البدوية ، وما يصاحبها من عزلة وكرّ وفرّ في الصحراء ، وخشونة في الحياة قد طبعتهم بذلك [٤].

أخرج الإمام أحمد عن أَبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: « مَنْ بَدَا جَفَا » [٥] .

« وهذا يكشف عن طابع الجفوة والفظاظة في نفوس الأعراب حتى بعد الإسلام » [٦].

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٢) ، وزهرة التفاسير (٧/ ٣٤٢٢) .

(٢) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٤٦٥)، وينظر: المفردات (١٨٩) ، ولسان العرب (٤/ ١١٩)، والوسيط (٦/ ٣٨٦) .

(٣)التفسير البسيط (١١/ ١٣) ، واللباب (١٠/ ١٧٨) ، وزهرة التفاسير (٧/ ٣٤٢٢)، والتحرير والتنوير (١١/ ١٢).

(٤) التفسير الكبير (١٦/ ١٢٥) ، واللباب (١٠/ ١٧٨) ، والسراج المنير (١/ ٦٤٣) .

(٥) مسند الإمام أحمد (١٤/ ٤٣٠) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٠٤) : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ، غير الحسن بن الحكم النخعي وهو ثقة .

(٦) في ظلال القرآن (٣/ ١٧٠٠) بتصرف ، وينظر: لباب التأويل (٢/ ٣٩٨) ، والتفسير القرآني (٦/ ٨٧٦) ،والوسيط (٦/ ٣٨٦) .

٣- أن الأعراب ما كانوا تحت سياسة سائس، ولا تأديب مؤدب، فنشاؤا كما شاؤوا، ومن كان كذلك خرج على أشد الجهات فسادًا [١].

٤- أن من أصبح وأمسى مشاهدًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهديه ، كيف يكون مساويًا لمن لم يؤاثر هذا الخير، ولم يسمع خبره ؟ ومن ثَمَّ فأذهانهم أبعد عن معرفة الحقائق ، وأملأ بالأوهام [٢].

٥- كما أنهم لبعدهم عن التطورات المدنية التي تؤثر سموًّا في النفوس وإتقانًا في وضع الأشياء في مواضعها، يكونون أكثر غلظة في المعاملة وأضيع للتراث العلمي والخلقي [٣] .

قال ابن عاشور: فأمّا في الأخلاق التي تحمد فيها الخشونة والغلظة والاستخفاف بالعظائم ، مثل الشجاعة والصراحة وإباء الضيم والكرم فإنها تكون أقوى في الأَعراب بالجبلة ، ولذلك يكونون أقرب إلى الخير إذا اعتقدوه وآمنوا به [٤] .

.

التذييل بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ :

هذا التذييل فيه : « دعوة لهؤلاء الأعراب أن ينزعوا لباس البداوة ، وأن يقتربوا من مواطن العلم والمعرفة ، حيث يلقون رسول الله ، ويأخذون عنه، ويخالطون المؤمنين ، ويحذون حذوهم » [٥] .

ومن الفوائد التي ينبغي الإشارة إليها هنا :

١- عدم استحباب سكنى البادية ، وهو غير محمود إلا إذا كان فرارًا من الفتن [٦].

---

(١) التفسير الكبير (١٦/ ١٢٥) ، والبحر المحيط (٥/ ٤٩١) ، ، والسراج المنير (١/ ٦٤٣) .

(٢) التفسير الكبير (١٦/ ١٢٥) ، والسراج المنير (١/ ٦٤٣) ، والتفسير القرآني (٦/ ٨٧٦) .

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٢) باختصار .

(٤) السابق (١١/ ١٢) .

(٥) التفسير القرآني للقرآن (٦/ ٨٧٦) .

(٦) ينظر : أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لأبي بكر الجزائري (٢/ ٤١٨) [ط/ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية ، ط/ خامسة ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م] ، وفتح الباري (١٣/ ٤١) ، والمحرر الوجيز (٣/ ٢٨٦) .

فما ذكر في الآية من أجدرية جهل الأعراب من بُعدهم عن سماع الشرائع، وملابسة أهل الحق- يشير إلى هذا [١] .

كما أن سكنى البادية يحول بين الإنسان ، ومصادر المعرفة والعِلم [٢].

٢- لما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ [٣][٤].

ولا يُعترض هذا بِبُدُوِّ يعقوب في قوله :﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾[٥] ، لأن ذلك البُدُوَّ لم يكن في أهل عمود ، وقيل:لم يكن يعقوب من أهل البدو، ولكنة تحول إلى بادية وسكنها [١].كما سبق بيانه .

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٤٨٢) . ولجهل الأعراب بأحكام الشريعة ، فقد ذهب الإمام مالك : إلى أن شهادة البدوي لا تقبل على الحضري، ولا تجوز إمامته له ، واستدلّ بما روِي عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: « لَا تجوز شهادة بدويٍّ على صاحب قَرْيَة » .

[سنن أبي داود بتخريج الأرنؤوط (٥/ ٤٥٤) رقم : (٣٦٠٢) ، وقال : إسناده صحيح ، وسنن ابن ماجه (٢/ ٧٩٣) رقم :(٢٣٦٧) ، وقال الألباني : صحيح] . قال ابن الأثير : إنما كره شهادة البدوي، لما فيه من الجفاء في الدِّين والجهل بأحكام الشريعة ؛ لأنهم في الغالب لا يضبطون الشهادة على وجهها، لقلة معرفتهم بشروطها ، وإليه ذهب مالك، والناس على خلافه ، فيجيزون شهادة البدوي على الحضري، والحضري على البدوي . [جامع الأصول في أحاديث الرسول،لابن الأثير (ت : ٦٠٦هـ) ، ط/ مكتبة الحلواني ، ومكتبة دار البيان ، ط/ أولى (١٠/ ١٩٢)] .

وهذا الحديث حملوه على من لم تُعرف عدالته من أهل البدو، والغالب أنهم لا تعرف عدالتهم .

ذكر هذا الشوكاني ، ثم قال : وهذا حمل مناسب ؛ لأن البدوي إذا كان معروف العدالة كان رد شهادته لعلة كونه بدويًّا غير مناسب لقواعد الشريعة، لأن المساكن لا تأثير لها في الرد والقبول ، لعدم صحة جعل ذلك مناطًا شرعيًّا، ولعدم انضباطه . [نيل الأوطار للشوكاني (٨/ ٣٣٦)، ط/ دار الحديث – مصر، ط/ أولى ١٤١٣هـ] .

(٢) ينظر : تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٤٩) ، وأيسر التفاسير (٢/ ٤١٨) .

(٣) سورة يوسف من الآية : ١٠٩ .

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٢) .

(٥) سورة يوسف من الآية : ١٠٠.

٣- فضيلة العلم ، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه ، لأن الله ذم الأعراب، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله [٢].

٤- أن أعظم العلم النافع هو معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، من أصول الدين وفروعه، كمعرفة حدود الإيمان، والإسلام، والإحسان، والتقوى ، ونحو ذلك [٣].

ومما أخرج الطبري أن أعرابيًّا جلس إلى زيد بن صَوْحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوَنْد ، فقال : والله إنّ حديثك ليعجبني ، وإن يدك لَتُرِيبُني! فقال زيد: وما يُريبك من يدي ؟ إنها الشمال! فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمينَ يقطعون أم الشمالَ؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [٤].

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز (٣/ ٢٨٦) ، وحاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي (٥/ ٢٠٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٤٩) .

(٣) السابق (ص: ٣٤٩) بتصرف .

(٤) جامع البيان (١٤/ ٤٢٩) ، وذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٠١) ، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٦٦).

المبحث الثاني

أصناف الأعراب

المطلب الأول : الأعراب المنافقون

لقد ورد الحديث عن هؤلاء في سورة التوبة في موضعين :

الأول : قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

الثاني : قوله : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢).

قوله : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ ... ﴾ الآية ، شروع في بيان تشعب جنس الأعراب إلى فريقين وعدم انحصارهم في الفريق المذكور سابقًا كما يتراءى من ظاهر النظم الكريم وشرح لبعض مثالب هؤلاء المتفرعة على الكفر والنفاق بعد بيان تماديهم فيهما (٣).

وبالتأمل في هذين الموضعين نجد أن هؤلاء المنافقين ينقسمون إلى فريقين : فريق يعدّ ما ينفق في سبيل الله خسارة ، يتحملها خوفًا ورياء ، ثم يتربّص أن تدور الدائرة على المسلمين ، وفريق آخر مرَد على النفاق .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٩٨ .

(٢) سورة التوبة ، الآية :١٠١.

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٩٨ .

أمَّا الفريق الأول من المنافقين : فقد وُصِف بوصفين :

الأول : أنهم يعدُّون نفقتهم مغرمًا : قال ابن قتيبة : أي غرمًا وخسرانًا [١].

وقال الراغب: الغُرْمُ : ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر ، يقال: غَرِمَ كذا غُرْمًا ، ومَغْرَمًا [٢].

فهؤلاء الأعراب يؤتون الزكاة وينفقون في سبيل الله ويعدُّون ذلك كالأوتاوات المالية والرزايا يدفعونها تقية في غير مقابل [٣].

وكان هذا الصنف « ينفق من ماله تظاهرًا بالإسلام، ليستمتع بمزايا الحياة في المجتمع المسلم ، لا مساعدة للغزاة المجاهدين، ولا نصرة للإسلام ، ولا حبًّا في المؤمنين [٤] .

ومن هؤلاء من امتنعوا من إعطاء الزكاة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] .

وهذا الصنف ، وإن كانوا من جملة منافقي الأعراب فتخصيصهم بالتقسيم هنا منظور فيه إلى ما اختصوا به من أحوال النفاق [٦] .

---

(١) غريب القرآن ، لابن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ) (ص: ١٩١) [ط/دار الكتب العربية – بيروت ١٩٧٨].

(٢) المفردات (ص: ٦٠٦) ، وينظر : لسان العرب (١٢/ ٤٣٦) ، والتفسير البسيط للواحدي (١١/ ١٥)

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٣) ، وزهرة التفاسير (٧/ ٣٤٢٣) ، ومحاسن التأويل (٥/ ٤٨٣) .

(٤) في ظلال القرآن (٣/ ١٧٠١) بتصرف ، وينظر : التفسير الكبير (١٦/ ١٢٦) ، والوسيط (٦/ ٣٨٧)

(٥) التحرير والتنوير (١١/ ١٣) .

(٦) السابق (١١/ ١٣) .

الوصف الثاني : أنهم متربصون بالمسلمين : قال تعالى : ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

والتربص في اللغة : الانتظار ، يقال : تَرَبَّصَ بِه : انْتَظَرَ بِهِ خَيْرًا أَو شَرًّا (٢).

والدوائر: جمع دائرة ، وهي الهزيمة والسُّوء . يقال : دَارَتْ عَلَيْهِ الدَّوائِرُ ، أَي نَزَلَتْ بِه الدَّوَاهِي ، وهي لا تستعمل إلا في المكروه (٣) .

قال الواحدي : وهي الحال المنقلبة عن النعمة إلى البلية، وخُصَّت بانقلاب النعمة دون انقلاب النقمة ؛ لأن النعمة أغلب وأعمّ ، إذ كل أحد فعليه نعمة من الله ، وليس كذلك النقمة؛ لأنها خاصة (٤) .

فقد كان من الأعراب من يتمنى أن ينهزم المسلمون ، وأن لا يرجعوا إلى أهليهم سالمين ، وأن يغلب الإسلام ، وكانوا ينتظرون متى تدور الدائرة على المسلمين !(٥).

الدعاء على هذا الصنف من الأعراب :

لما تمنى هؤلاء الأعراب هلاك المسلمين ، عاجلهم الله بقوله : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ ،أي : عليهم يدور البلاء والحزن ، ولا يرون في محمد ودينه إلا ما يكرهون وما يسوءهم.

وهو دعاء عليهم وتحقير، والدعاء من الله على خلقه : تكوين وتقدير مشوب بإهانة ؛ لأنه لا يعجزه شيء فلا يحتاج إلى تمني ما يريده (٦) .

---

(١) سورة التوبة من الآية : ٩٨ .

(٢) المفردات (ص: ٣٣٨) ، ولسان العرب (٧/ ٣٩) .

(٣) الصحاح للجوهري (٢/ ٦٦١) ، والمفردات (ص: ٣٢١) ، ولسان العرب (٤/ ٢٩٧) ، ومختار الصحاح (ص: ١٠٩) ، وتاج العروس (١١/ ٣٣٤) ، وفتح القدير (٢/ ٤٥١) .

(٤) البسيط (١١/ ١٥) .وينظر : روح المعاني (٦/ ٧)

(٥) في ظلال القرآن (٣/ ١٧٠١) .

(٦) معالم التنزيل (٢/ ٣٨٠) ، والتحرير والتنوير (١١/ ١٤) .

وإضافة :﴿ دَائِرَةُ ﴾ إلى ﴿ السَّوْءِ ﴾ للمبالغة كقولك : رجل صدق [١].
وكأن للسوء دائرة تدور عليهم فلا تدعهم ، وذلك من باب تجسيم المعنوي وتخييله، الذي يعمق وقع المعنى ويحييه .
ولقد دارت دائرة السوء على الطوائف المنافقة من الأعراب إذ قاتلهم المسلمون في خلافة أبي بكر عام الردة وهزموهم فرجعوا خائبين [٢].
سرّ التذليل بقوله : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٣].
وجاء ختام هذه الآية بهذا النظم الجليل؛ لأن السمع والعلم يتناسبان مع جو التربص بالسوء من أعداء الإسلام ، والنفاق الذي تحتويه جوانحهم، وتخفيه ظواهرهم .. فالله سميع لما يقولون عليم بما يظهرون وما يكتمون [٤].
الفريق الثاني : المنافقون الذين مردوا على النفاق :
قال تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [٥].
كانت الأعراب الذين حول المدينة قد خلصوا للنبي صلى الله عليه وسلم وأطاعوه ، فأعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن في هؤلاء منافقين أتقنوا النفاق وأجادوه ، كي لا يغتر بكل من يظهر له المودة والمحبة [٦].

---

(١)جامع البيان (١٤/ ٤٣١)،وأنوار التنزيل(٣/ ٩٥) ، وإرشاد العقل السليم(٤/ ٩٦) ، والتحرير والتنوير(١١/ ١٤).
(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٤) .
(٣) سورة التوبة ، من الآية :٩٨ .
(٤) في ظلال القرآن (٣/ ١٧٠١) . وينظر : إرشاد العقل السليم (٤/ ٩٦).
(٥) سورة التوبة ، الآية :١٠١ .
(٦) التحرير والتنوير (١١/ ١٩) ، وزهرة التفاسير (٧/ ٣٤٣٠) .

ولعلَّ فيه –أيضًا– تخويفًا لهم ليعلموا أن الله عليم بما يسرُّون من نفاقهم، ويحذروا أن يفضحهم كما فضح غيرهم ؛ ليتوب المستعد للإيمان منهم وهو في ستر الله تعالى قبل أن ينجز ما أوعدهم من العذاب [١].

المقصودون بهذا الوصف :

والمقصودون بقوله : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكم مِّنَ الأَعْرَابِ ﴾ قبائل مختلفة من الأعراب ، قيل : هم قبائل جهينة ، ومزينة ، وأشجع ، وأسلم ، وغفار، وكانت منازلهم حول المدينة ، وهو قول ابن عباس ، وعكرمة ، وغيرهما [٢] .

وهذا يعكّر عليه ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه أثنى على هؤلاء القبائل ، فقد روي عن أبى هريرة (رضي الله عنه) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « قُرَيْشٌ ، والأَنْصَارُ، وَجُهَيْنَةُ ، وَمُزَيْنَةُ ، وَأَسْلَمُ ، وَأَشْجَعُ ، وَغِفَارُ مَوَالِيَّ ...» الحديث [٣] .

فإن صحَّ ما نقل عن ابن عباس (رضي الله عنهما) فتحمل الآية على القليل منهم ؛ لأن لفظة (مِن) للتبعيض، ويحمل الدعاء لهم على الأكثر والأغلب ، وبهذا يمكن الجمع بين ما نقل عن ابن عباس ، ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم [٤].

---

(١) ينظر : تفسير المنار (١١/ ١٦) .

(٢) النكت والعيون (٢/ ٣٩٦) ، ومعالم التنزيل (٢/ ٣٨٢) ، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٤٠) ، وزاد المسير (٢/ ٢٩٢) ، والتفسير الكبير (١٦/ ١٣٠) ، ولباب التأويل (٢/ ٤٠٠) ، وفتح القدير (٢/ ٤٥٧) .

(٣) صحيح البخاري (٤/ ١٧٩) كتاب : المناقب ، باب: ذكر أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع ، حديث رقم :(٣٥٠٤) .

(٤) لباب التأويل (٢/ ٤٠٠) ، وفتح البيان (٥/ ٣٨٤) ، وروح المعاني (٦/ ١١) .

وأمَّا قوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ [١] **ففيه وجهان :**

الأول : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير: وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق [٢].

الثاني: يجوز أن يكون التقدير: ومن أهل المدينة مَن مردوا على النفاق ، فأضمر « مَن » لدلالة ﴿ وَمِنْ ﴾ عليها [٣] .

ومعنى:﴿ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ ، أي : تمرنوا ، ومهروا ، من مرَدَ فلان على العمل، إذا مهر فيه ، يقال: مرد يمرد مرودًا ، فهو مارد ومريدٌ : إذا عتا وطغى وأعيا خبثًا [٤].

قال ابن منظور: والمُرُودُ على الشيءِ : المُرُون عَلَيْه . ومَرَدَ على الكَلَام ، أَي مَرَنَ عَلَيْه لا يَعْبَأُ بِه . قال الفرَّاء : يُرِيدُ مَرَنُوا علَيْه [٥].

هذا الفريق غير معروف للرسول صلى الله عليه وسلم .

نصَّ قوله تعالى : ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [٦] على أن رسول الله كان لا يعلم هؤلاء المنافقين . وهو قول مقرر لما قبله ؛ لما فيه من الدلالة

---

(١) سورة التوبة ، من الآية :١٠١.

(٢) ينظر: معاني القرآن للزجاج (٢/ ٤٦٧) ، والتفسير البسيط (١١/ ٢٧) ، والتفسير الكبير (١٦/ ١٣٠) .

(٣) البسيط (١١/ ٢٧) ، والكشاف (٢/ ٣٠٥) ، والتفسير الكبير (١٦/ ١٣٠) ، والدر المصون ٦/ ١١٢) .

(٤) معاني القرآن للفراء (١/ ٤٥٠) [ط/ دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر ، ط/أولى]، ولسان العرب

(٣/ ٤٠٠) ، والتفسير البسيط (١١/ ٢٧) ، والكشاف (٢/ ٣٠٥) .

(٥) لسان العرب (٣/ ٤٠٠) ، وينظر : معاني القرآن للفراء (١/ ٤٥٠) ،ومقاييس اللغة (٥/ ٣١٧) ،والمفردات (ص: ٧٦٤) .

(٦) سورة التوبة ، من الآية : ١٠٣ .

على مهارتهم في النفاق ورسوخهم فيه على وجه يخفى على البشر، ولا يظهر لغير الله سبحانه لعلمه بكل شيئ [١].

وقوله : ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ﴾ لا ينافي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرف بعضًا منهم ، فالعلم المنفي هنا هو عدم علمه صلى الله عليه وسلم بأعيانهم لا من حيث الجملة ، فإن للنفاق دلائل لا تخفى[٢].

وإنما أعلمه بوجودهم على الإجمال ؛ لئلاَّ يغتر بهم المسلمون ، وفيه إشارة إلى عدم الفائدة للرسول صلى الله عليه وسلم في علمه بهم ، فإن علم الله بهم كاف [٣].

التوفيق بين قوله : ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [٤] وبين قوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ...﴾ الآية [٥].

ليس هناك تنافٍ بين الآيتين ؛ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين ، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقًا، وإن كان يراه صباحًا ومساءً ، وشاهد هذا ما رواه الإمام أحمد عن جُبير بن مُطعمٍ (رضي اللَّهُ عنه)، قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا أَجْرٌ بِمَكَّةَ، فَقَالَ: لَتَأْتِيَنَّكُمْ أُجُورُكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي جُحر ثَعْلَبٍ. قال :

---

(١) إرشاد العقل السليم (٤/ ٩٨) ، وروح المعاني (٦/ ١١) ، وفتح القدير (٢/ ٤٥٤) ، والوسيط (٦/ ٣٩٣) .

(٢) فتح القدير (٢/ ٤٥٣)، وينظر : إرشاد العقل السليم (٤/ ٩٧) .

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ٢٠) .

(٤) سورة التوبة من الآية : ١٠٣ .

(٥) سورة محمَّد من الآية : ٣٠ .

فأَصْغَى إليَّ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم بِرَأْسِهِ فقال: « إِنَّ فِي أَصْحَابِي مُنَافِقِينَ » [١] .

ومعناه: أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له ، ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم [٢] .

وعن ابن عمر (رضِي الله عنهما)، قال: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إِذْ جَاءَهُ حَرْمَلَةُ بْنُ زَيْدٍ فقال يا رَسُولَ الله : إِنَّ لِي إِخْوَانًا مُنَافِقِينَ كُنْتُ فِيهِمْ رَأْسًا ، أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَيْهِمْ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: « لَا ، مَنْ جَاءَنَا كَمَا جِئْتَنَا اسْتَغْفَرْنَا لَهُ كَمَا اسْتَغْفَرْنَا لَكَ ، وَمَنْ أَصَرَّ عَلَى ذَنْبِهِ فَاللهُ أَوْلَى بِهِ ، وَلَا تَخْرِقْ عَلَى أَحَدٍ سَتْرًا » [٣][٤] .

عقاب هذا الصنف من الأعراب :

قال تعالى: ﴿ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [٥].

وجملة :﴿ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ نص في أن الله تعالى سيعذبهم على نفاقهم ، ولا يفلتهم منه عدم علم الرسول عليه الصلاة والسلام بهم [١] .

---

(١) مسند أحمد (٢٧/ ٣٢٨) حديث رقم : ١٦٧٦٤ ، وأخرجه أبو داوود في المسند (٢/ ٢٥٦) حديث رقم : ٩٩١ . [مسند أبي داود الطيالسي (ت: ٢٠٤هـ) ، ط/ دار هجر ، ط/ أولى ، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م]، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٥٢) وقال : رواه أحمد ، وأبو يعلى ، وفيه رجل لم يسم .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٤) ، وأضواء البيان (٢/ ١٤٩) .

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٤/ ٥) حديث رقم : ٣٤٧٥ ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٤١٠) ١٦١٤٧ ، وقال : رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح ، وابن كثير في جامع المسانيد والسنن (٢/ ٤٤٣)[ط/ دار خضر للطباعة ، بيروت – لبنان].

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٤) .

(٥) سورة التوبة ، من الآية :١٠١.

والعذاب الموصوف بـ﴿ مَرَّتَيْنِ ﴾ عذاب في الدنيا ؛ لقوله بعده : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [٢] .

وقد اختلف المفسرون في المراد بـ﴿ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ على قولين :

أحدهما : – والذي عليه الأكثرون – أن العدد على حقيقته : وهؤلاء اختلفوا فيه على أقوال كثيرة :

منها: أن العذاب الأول في الدنيا ، هو فضيحتهم بالنفاق . والعذاب الثاني : عذاب القبر، قاله ابن عباس [٣] .

ومنها : أن العذاب الأول : إقامة الحدود عليهم ، والثاني : عذاب القبر .

ومنها: أن الأول : عند الموت ، تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم ، والثاني: في القبر بمنكر ونكير [٤] .

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٢٠) ، وينظر : إرشاد العقل السليم (٤/ ٩٨) ، وروح المعاني (٦/ ١٢) .

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٢٠) ، وروح المعاني (٦/ ١٢) .

(٣) روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يوم جمعة خطيبا ، فقال: « قم يا فلان فاخرج ، فإنك منافق ، اخرج يا فلان، فإنك منافق » ، فأخرجهم بأسمائهم، ففضحهم، ولم يكن عمر بن الخطاب شهد تلك الجمعة لحاجة كانت له، فلقيهم عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة ، وظنَّ أن الناس قد انصرفوا، واختبئوا هم من عمر، وظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فدخل عمر المسجد ، فإذا الناس لم ينصرفوا . فقال له رجل: أبشر يا عمر، فقد فضح الله المنافقين اليوم ، فهذا العذاب الأول ، والعذاب الثاني عذاب القبر . [أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (١/ ٢٤١) حديث رقم : ٧٩٢ [ط/ دار الحرمين – القاهرة] ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٤) ، وقال : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي ، وهو ضعيف].

(٤) البسيط (١١/ ٣٠) ، وزاد المسير (٢/ ٢٩٣) ، والتفسير الكبير (١٦/ ١٣١)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٥) .

ثانيهما : أن العدد مستعمل لمجرد قصد التكرير المفيد للتأكيد ، كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ [١] .

والمعنى: سنعذبهم عذابًا شديدًا متكررًا مضاعفًا، وهذا التكرر تختلف أعداده باختلاف أحوال المنافقين واختلاف أزمان عذابهم [٢] .

وبالجملة : فقد بينت هذه الآية صورة لفريق من المنافقين استطاعوا أن يخفوا نفاقهم عن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين . ومن الممكن أن يستلهم من أسلوب الآية قصد الإيقاظ والتحذير من جهة ، وقصد التهديد بالفضيحة من جهة أخرى ، بالإضافة إلى بيان واقع أصحاب هذه الصورة وتقرير استحقاقهم لعذاب مضاعف [٣].

المطلب الثاني : الأعراب المؤمنون

لما بيّن الله تعالى أن في الأعراب منافقين يتخذون إنفاقهم في سبيل الله مغرمًا ، أتبعه ببيان أن فيهم من آمن بالله ، ويتخذ إنفاقه في سبيل الله مغنمًا، فقال : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٤] [٥].

---

(١) سورة الملك من الآية : ٤ .

(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ٩٨) ، والتحرير والتنوير (١١/ ٢٠) ، والوسيط (٦/ ٣٩٥) .

(٣) التفسير الحديث (٩/ ٥٢٦) .

(٤) سورة التوبة ، الآية : ٩٩ .

(٥) التفسير الكبير (١٦/ ١٢٦) .

وهؤلاء المؤمنون من الأعراب هم أضداد المذكورين في قوله : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ [١]، وقوله : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا ..﴾الآية [٢]، وقّاهم الله تعالى حقّهم من الثناء عليهم [٣] .

المقصودون بهذا الوصف :

وقد اختلف في هؤلاء الأعراب ، فالأكثرون : على أنهم بنُو مُقَرِّن من مُزَيْنة ، ومن هؤلاء عبد الله ذو البجادين المزني ، قاله مجاهد . وقيل: هم أسلم وغفار وجهينة [٤] ، وقال ابن عباس: يعني من أسلم من أعراب أسد وجهينة وغفار [٥] .

والأَولى : حمل الكلام على كل من آمن من الأعراب من هذه القبائل ، وغيرها [٦].

وصْف هذا الفريق من الأعراب : وصف الله هذا الفريق المؤمن بوصفين : الأول: كونه مؤمنًا بالله واليوم الآخر ، ولقد كان الإيمان بالله واليوم الآخر هو الباعث للإنفاق عند هذا الفريق من الأَعراب ، لا الخوف من الناس ، ولا نفاقًا [٧] .

والثاني: كونه : ﴿ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ [١] .

.

---

(١) سورة التوبة من الآية : ٩٧ .

(٢) سورة التوبة من الآية : ٩٨ .

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٥) .

(٤) جامع البيان (١٤/ ٤٣٣) ، ومعالم التنزيل (٢/ ٣٨٠) ، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٣٥) ، ولباب التأويل (٢/ ٣٩٨) ، والدر المنثور (٤/ ٢٦٨) .

(٥) التفسير البسيط (١١/ ١٩) ، ولباب التأويل (٢/ ٣٩٨) .

(٦) ينظر : تفسير المنار (١١/ ١٠) ، وفتح الباري (٦/ ٥٤٣) .

(٧) في ظلال القرآن (٣/ ١٧٠١) .

ومعنى:﴿ وَيَتَّخِذُ ﴾ يفعلها قاصدًا أن تكون قربات ، لا كالذين فعلوها على أنها مغرم من المغارم يغرمونها [٢].

و﴿ **قُرُبَاتٍ** ﴾ جمع قُربة ، وهي: ما يتقرب بها إلى الله تعالى [٣] .

قال الواحدي : القُربة : ما يدني من رحمة الله من فعل خير وإسداء معروف [٤] .

وجمع ﴿ قُرُبَاتٍ﴾ : باعتبار تعدد الإنفاق ، فكل إنفاق هو قربة عند الله تعالى [٥] .

والمراد بـ ﴿ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾: دعواته لهم ، وأصل الصلاة الدعاء [٦].

وجمعت هنا ؛ لأن كل إنفاق يقدمونه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو لهم بسببه دعوة، فبتكرر الإنفاق تتكرر الصلاة من الرسول . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو لكل من يأتيه بصدقته وإنفاقه ، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ...﴾ [٧].

---

(١) سورة التوبة ، من الآية : ٩٩ .

(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ٩٦) ، وزهرة التفاسير (٧/ ٣٤٢٥) .

(٣) ينظر : المفردات (ص: ٦٦٤) ، والتفسير البسيط (١١/ ٢٠) .

(٤) التفسير البسيط (١١/ ٢١) .

(٥) إرشاد العقل السليم (٤/ ٩٦) ، وروح المعاني (٦/ ٧) ، والمنار (١١/ ١٠) ، وزهرة التفاسير (٧/ ٣٤٢٥) .

(٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٦٦) ، والبسيط للواحدي (١١/ ٢٠) ، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٣٥) .

(٧) سورة التوبة من الآية : ١٠٣ .

فعن عبد اللَّه بن أبي أَوْفَى ، قال: كان النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَتِهِمْ، قال: « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلاَنٍ»، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى» (١)(٢) .

ثناء الله تعالى على هذا الصنف من الأعراب ، وبشارته لهم :

لقد بيَّن الله تعالى جزاء هؤلاء الأعراب على ما يشهد لهم به من صدق الإيمان وإخلاص النية في الإنفاق في سبيل الله ، فقال : ﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ﴾ (٣)، وهي جملة مستأنفة مسوقة مساق البشارة لهم بقبول ما رجوه (٤). (٤).

والضمير في ﴿إِنَّهَا﴾ : يحتمل أن يعود إلى : ﴿ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ ، ويحتمل أن يعود إلى الإنفاق، وكلاهما قربة لهم عند الله تعالى (٥).

وفي هذا من التطييب لخواطرهم، والتطمين لقلوبهم ما لا يقادر قدره ، مع ما يتضمنه من النعي على من يتخذ ما ينفق مغرمًا، والتوبيخ له بأبلغ وجه (٦). (٦).

وجملة: ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ .. ﴾ واقعة موقع البيان لجملة : ﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ﴾؛ لأن القربة عند الله هي الدرجات العلى ورضوانه ، وذلك من الرحمة (١) .

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ١٢٩) كتاب: الزكاة ، باب: صلاة الإمام، ودعائه لصاحب الصدقة، رقم : ١٤٩٧.

(٢) إرشاد العقل السليم (٤/ ٩٥) ، وفتح القدير (٢/ ٤٥١) ، وروح المعاني (٦/ ٨) ، والمنار (١١/ ١٠)

(٣) سورة التوبة من الآية : ٩٩ .

(٤) تفسير المنار (١١/ ١٠) .

(٥) لباب التأويل (٢/ ٣٩٨) ، وإرشاد العقل السليم (٤/ ٩٦) ، وروح المعاني (٦/ ٨) .

(٦) فتح القدير (٢/ ٤٥١) .

وهذه شهادة من الله تعالى للمؤمن المتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات عند الله وصلوات الرسول له مقبولة ، وهذه النعمة هي أقصى مرادهم [٢].

وجاء تذييل هذه البشارة العظيمة بقوله :﴿ إنَّ الله غفُور رحيمٌ ﴾ مناسبًا لما رجوه ، وأثبت بحرف التأكيد للاهتمام بهذا الخبر، أي غفور لما مضى من كفرهم، رحيم بهم يفيض النعم عليهم .

وبالجملة : ففي الآية الكريمة من بلاغة الإيجاز ما يدل على علوِّ مقام هؤلاء الأعراب [٣].

المبحث الثالث

الأعراب وتخلفهم عن الحديبية ، وتبوك

المطلب الأول

الأعراب وتخلفهم عن الحديبية ، وطلبهم الخروج إلى خيبر

أولاً – الأَعراب ، وعذر تخلفهم ، وردّ القرآن عليهم :

ورد الحديث عن هذا الموقف في سورة الفتح ، فبعد أن بيّن الله عز وجلّ حال المنافقين فيها ذكر حال الأعراب الذين تخلفوا عن الذهاب مع

---

(١) إرشاد العقل السليم (٤/ ٩٦)، وروح المعاني (٦/ ٨) ، والتحرير والتنوير (١١/ ١٦) ، وتفسير المنار (١١/ ١١) .

(٢) لباب التأويل (٢/ ٣٩٨) ، وإرشاد العقل السليم (٤/ ٩٦) ، وروح المعاني (٦/ ٨) .

(٣) إرشاد العقل السليم (٤/ ٩٦) ، وروح المعاني (٦/ ٨) ، والتحرير والتنوير (١١/ ١٦) ، والمنار (١١/ ١١).

الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الحديبية ، فقال : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١).

والأعراب المقصودون هنا : طوائف منهم من سكان البادية ، كان رسول صلّى الله عليه وسلّم قد دعاهم إلى الخروج معه إلى مكة ، ليساعدوه على إقناع قريش في الإذن بدخول مكة للطواف بالبيت الحرام .. فتخلف الكثيرون منهم واعتلُّوا بالشغل بالأموال والأهل ؛ لظنهم أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سُيهزم (٢).

- وروي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) تسمية بعض منهم فقال : هم أعراب غفار ، ومزينة ، وجهينة ، وأسلم ، وأشجع ، والديل ، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة (٣).

وهذا فيه إشكال ؛ فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه دعا لبعض هذه القبائل ،كما سبق ذكره .

فإن صحَّ ما روي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) فتحمل الآية على من نافق من الأعراب ، ويحمل الدعاء لهم على من آمن منهم (٤).

والمخلَّفون : جمع مخلَّف ، وهو المتروك في مكان خلف الخارجين من البلد (١) .

---

(١) سورة الفتح الآية : ١١ .

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٨/ ٧٤) ، وتفسير ابن كثير (٧/ ٣٣٧) ، والوسيط (١٣/ ٢٦٩) .

(٣) البسيط (٢٠/ ٢٩٣) ، وتفسير القرطبي (١٦/ ٢٦٨) ، ولباب التأويل (٤/ ١٥٧) .

(٤) ينظر : لباب التأويل (٢/ ٤٠٠) ، وفتح البيان (٥/ ٣٨٤) ، وروح المعاني (٦/ ١١) .

وعبّر عن هؤلاء الأعراب بـ« المخلَّفين » على سبيل الذم لهم [٢] . ولم يقل: المتخلفون، تحقيقًا أن تخلفهم كان بغضًا لله تعالى [٣] .

وجاء بـ﴿ لَكَ ﴾ هنا ؛ لأن طلبهم كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا عند المسلمين ، ويؤيده قوله :﴿ فَاسْتَغفِرْ لنَا ﴾ [٤] .

عذر الأعراب الكاذب ، وطلبهم الاستغفار من الرسول صلى الله عليه وسلم :

كان هؤلاء المنافقون قد أعدُّوا للمعذرة بعد رجوع النبي صلى الله عليه وسلم أنهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم ، فأخبر الله رسوله عليه الصلاة والسلام بما بَيَّتُوه في قلوبهم وفضح أمرهم من قبل أن يعتذروا .وهذه من معجزات القرآن بالأخبار التي قبل وقوعه [٥].

ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له : ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ أي عن الذهاب معك ، وبدأوا بذكر الأموال ، لأن بها قوام العيش [٦].

ثم إنهم مع العذر طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم العفو فقالوا : ﴿ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ ، أي بسبب تخلفنا عنك .

---

(١) ينظر : الصحاح للجوهري (٤/ ١٣٥٦) ، والمفردات (ص: ٢٩٥) ، ولسان العرب (٩/ ٨٢) ، وتاج العروس (٢٣/ ٢٧٥) ، وروح المعاني (١٣/ ٢٥٢) .

(٢) الوسيط (١٣/ ٢٦٩) .

(٣) التفسير البسيط للواحدي (٢٠/ ٢٩٣) .

(٤)ينظر : التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٧) ، والوسيط (١٣/ ٢٦٩) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦١) .

(٦) البحر المحيط (٩/ ٤٨٨) .

وطلبهم الاستغفار ليس صادرًا منهم على حقيقة ، بل على وجه التقية والمصانعة ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [١][٢].

ردّ القرآن على هؤلاء الأعراب :

لقد كان رد القرآن عليهم فاضحًا لهم ، وكاشفًا عن حقيقتهم ، وعمّا أضمروه للرسول صلّى الله عليه وسلّم [٣]. ويتمثل ردّ القرآن عليهم فيما يلي :

١ – بيان كذب الأعراب في عذرهم :

فلما قالوا شغلتنا أموالنا وأهلونا وطلبوا الاستغفار من الرسول عليه السلام كذبهم الله تعالى بقوله: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ ، وهذا التكذيب يحتمل شيئين :

أحدهما: أن يكون التكذيب راجعًا إلى قولهم : ﴿ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ وقد كذبهم الله ؛ لأنه لم يكن في اعتقادهم أنهم مخطئون، بل كانوا يعتقدون أنهم بالتخلف محسنون [٤].

ثانيهما: أن يكون راجعًا إلى ﴿شَغَلَتْنَا﴾ وقد كُذِّبوا ؛ لاعتقادهم أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه سيغلبون، كما قال بعده :﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ [٥][٦].

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٣٧) بتصرف ، وينظر : التفسير الكبير (٢٨/ ٧٤) ، ولباب التأويل (٤/ ١٥٧)

(٢) التفسير الكبير (٢٨/ ٧٤) .

(٣) ينظر : البحر المحيط (٩/ ٤٨٨) ، وروح المعاني (١٣/ ٢٥٢) .

(٤) جامع البيان (٢٢/ ٢١١) ، والمحرر الوجيز (٥/ ١٣١) ، والتفسير الكبير (٢٨/ ٧٤) .

(٥) سورة الفتح من الآية : ١٢.

(٦) المحرر الوجيز (٥/ ١٣١) ، والتفسير الكبير (٢٨/ ٧٤) .

٢- **بيان أنهم لا يملكون لأنفسهم ضرًّا أو نفعًا** ، وإلى ذلك الإشارة بقوله :﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١) .

أي : فمن يمنعكم من قضاء الله ؟ إن أراد بكم ضرًّا ، من قتل أو هزيمة ، أو أراد بكم نفعًا من نصرٍ وغنيمة ؟ أي هو تعالى المتصرف فيكم، وليس حفظكم أموالكم وأهليكم بمانع من ضياعها إذا أراده الله تعالى (٢).

٣- **بيان أن ما يسرُّونه من عذر ليس خافٍ عن الله تعالى** . وإلى ذلك الإشارة بقوله :﴿ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما فيه رد أمرهم إلى الله ليعلمهم أن استغفاره الله لهم لا يكره الله على المغفرة ، بل الله يفعل ما يشاء إذا أراده ، فإن كان أراد بهم نفعًا نفعهم وإن كان أراد بهم ضرًّا ضرهم ، فما كان من النصح لأنفسهم أن يتورطوا فيما لا يرضي الله ثم يستغفرونه ، فلعله لا يغفر لهم (٣).

فالغرض من هذا تخويفهم من عقاب ذنبهم ليكثروا من التوبة وتدارك الممكن ،كما دلَّ عليه قوله تعالى بعده :﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ...﴾ الآية (٤)(٥).

٤- **بيان السبب الحقيقي وراء تخلفهم :**

---

(١) سورة الفتح من الآية : ١٣.

(٢)ينظر :البحر المحيط (٩/ ٤٨٨) ، وإرشاد العقل السليم (٨/ ١٠٧) ، وروح المعاني (١٣/ ٢٥٢) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٢) .

(٤) سورة الفتح من الآية : ١٦ .

(٥) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٢) باختصار.

لقد بيّن القرآن السبب الحقيقي في تخلف هؤلاء الأعراب عن الحديبية ، وهو ظنهم أن المسلمين سيهلكون ولا يرجعون .

قال تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ [١] .

والمعنى : ليس الأمر كما زعمتم من أن أموالكم وأولادكم هي التي شغلتكم عن الخروج مع رسولكم صلّى الله عليه وسلّم ، ولكن الحق أنكم اعتقدتم أن العدو سيستأصل شأفة المؤمنين بالقتل والإهلاك ، وأنهم لن يعودوا بعد ذلك إلى أهليهم أبدًا [٢].

وزيّن الشيطان هذا الظن الفاسد في قلوبكم ، ومكَّنه من نفوسكم فقبعتم في دياركم، وظننتم في كل ما يتعلق بالرسول صلّى الله عليه وسلّم ﴿ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أي: الظن الذي كله سوء وشر ومنكر [٣] .

٥- **بيان حكم الله فيهم** : قال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ ، أي : وكنتم قَوْمًا هالكين فاسدين ، لا تستحقون إلا الخزي والعقاب [٤] .

قال الجوهري: البور: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه ، وقد بارَ فلان، أي هلَك. وأبارَهُ الله : أهلكه .. والبور الهلاك [٥] .

ووجود كلمة : ﴿ قَوْمًا بُورًا ﴾ بين ﴿ وَكُنْتُمْ ﴾ ، و ﴿ بُورًا ﴾ لإفادة أن البوار صار من مقومات قوميتهم لشدة تلبسه بجميع أفرادهم [١] .

---

(١) سورة الفتح الآية : ١٢ .

(٢) الوسيط (١٣/ ٢٧٠) . وينظر: إرشاد العقل السليم (٨/ ١٠٧) ، وفتح البيان (١٣/ ١٠٠) .

(٣) معاني القرآن للزجاج (٥/ ٢٣) ، وجامع البيان (٢٢/ ٢١٣)، والوسيط (١٣/ ٢٧٠) .

(٤) المحرر الوجيز (٥/ ١٣٠) ، وتفسير القرطبي (١٦/ ٢٦٩) ، والوسيط (١٣/ ٢٧٠) .

(٥) الصحاح تاج اللغة (٢/ ٥٩٧) ، باختصار . وينظر : معاني القرآن للزجاج (٥/ ٢٣) ، ومقاييس اللغة (١/ ٣١٦) ، وتفسير القرطبي (١٦/ ٢٦٩)، وفتح القدير (٥/ ٥٨) .

٦- **التنديد والتهديد :** ختم الله تعالى هذا الذم والتهديد للمتخلفين بقوله: ﴿ وَمَن لَّم يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيرًا ﴾ [٢].

فإن من لم يؤمن بالله ورسوله ويثق بهما ويكون طائعًا سميعًا لكل ما يأمرانه به يستحق ما أعده الله للكافرين من سوء المصير [٣] .

وهذا بيان للجهة التي جاء منها الهلاك والبوار لأولئك المخلّفين ، وهو أنهم لم يكونوا مؤمنين بالله ورسوله، إذ لو كانوا مؤمنين حقًّا لما كان منهم هذا التخلف عن دعوة الرسول لهم.. إذ الإيمان- في حقيقته - ولاء مطلق، ومتابعة بلا تردد، ولا مراجعة [٤] .

وقيل : هذا كلام مستأنف من جهة الله سبحانه، غير داخل تحت ما أمر الله سبحانه رسوله أن يقوله ، أي : ومن لم يؤمن بالله ورسوله كما صنع هؤلاء المخلفون فجزاؤهم ما أعده الله لهم من عذاب السعير [٥] .

٧- **بيان أن الملك لله وحده ، وأن باب التوبة مفتوح :**

قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشاءُ وَكانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [٦] .

فهذا النظم الكريم دعوة إلى الذين ساء ظنهم بالله أن يقيموا إيمانهم بالله على هذا المفهوم ، وعليهم أن لا يخرجوا عن أمره ، وعليهم أن ينصروا

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٥) .

(٢) سورة الفتح من الآية : ١٣ .

(٣) التفسير الحديث (٨/ ٥٩٣) ، والوسيط (١٣/ ٢٧٠).

(٤) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤١٠) .وينظر : البحر المحيط (٩/ ٤٨٩) .

(٥) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٠٨) ، وروح المعاني (١٣/ ٢٥٤) ، وفتح البيان (١٣/ ١٠١) .

(٦) سورة الفتح الآية :١٤ .

رسوله فإن هم فعلوا، غفر الله تعالى لهم ما كان من تقصير في حق الله، وسوء ظنّ به [١] .

وهذا القول حسم لأطماعهم الفارغة في استغفاره صلى الله عليه وسلم لهم [٢].

ثانيًا – طلب الأعراب الخروج مع المسلمين إلى خيبر :

لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من الحديبية منتصرًا غانمًا ، وعدهم الله عز وجل فتح خيبر ، وخص غنائمها لمن شهد الحديبية ، فلما أراد المسلمون أن ينطلقوا إلي خيبر قال هؤلاء المخلَّفون :﴿ ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ ، أي : دعونا نذهب معكم ، لنشارككم في جمع الغنائم [٣].

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه عن ما سيكون من هؤلاء ، فقال : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ..﴾ [٤].

وهؤلاء هم الموصوفون بقوله : ﴿ مِنَ الأعْراب ﴾ [٥]. واستغني عن وصفهم وصفهم بأنهم : ﴿ مِن الأَعْراب ﴾ ؛ لأنّ تعريف :﴿ الْمُخَلَّفُون ﴾ تعريف العهد ، أي المخلفون المذكورون [٦].

ولم يأت هنا بمجرور ﴿ لَكَ ﴾ كما أتي به في قوله : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ ..﴾ [١]؛ لأن هذا قول راغب صادق ، وصادر منهم عن قريحة ورغبة لأجل أن يقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم [٢].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤١٠) ، والتفسير الحديث (٨/ ٥٩٣) .

(٢) فتح البيان (١٣/ ١٠١) .

(٣) التفسير الكبير (٢٨/ ٧٥) ، ولباب التأويل (٤/ ١٥٧) ، وفتح البيان (١٣/ ١٠١) .

(٤) سورة الفتح من الآية : ١٥ .

(٥) سورة الفتح من الآية : ١١ .

(٦) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٧)، وينظر : إرشاد العقل السليم (٨/ ١٠٨) ، والتفسير الوسيط (١٣/ ٢٧١) .

وأشعر قوله: ﴿ ذَرُونَا ﴾ بأن النبي صلى الله عليه وسلم سيمنعهم من الخروج معه ؛ لأن الله أمره أن لا يخرج معه إلى خيبر إلا من حضر الحديبية .

وقوله :﴿ نَتَّبِعْكُمْ ﴾ يقتضي أنهم قالوا هذه الكلمة استنزالاً لإجابة طلبهم ، وأنهم سيكونون كالأتباع ، أي أنهم راضون بأن يكونوا في مؤخرة الجيش [٣].

كما أن هذا القول الصادر منهم يكشف كذبهم ، فلو كان عذرهم السابق حقًّا لما حرصوا على الخروج إذا توقعوا المغانم ولأقبلوا على الاشتغال بأموالهم وأهليهم كما تعللوا سابقًا [٤] .

رفض ما طلبوه :

لما طلب هؤلاء الأعراب السير مع المسلمين ، أرشد الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن لا يأذن لهم في ذلك فقال : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾[٥]، أي : يريدون بطلبهم الذهاب إلى خيبر أن يغيروا ﴿ كَلَامَ اللَّه ﴾ ، والمراد به : ما أوحاه الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم من وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر خاصة لهم ، وذلك

---

(١) سورة الفتح من الآية : ١١ .

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٧) بتصرف .

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٨) بتصرف .

(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٧) بتصرف ، وينظر: لباب التأويل (٤/ ١٥٨) ، وفتح القدير (٥/ ٥٧)، وتفسير المراغي (٢٦/ ٩٦) .

(٥) سورة الفتح من الآية : ١٥ .

تعويضًا للمسلمين عن عدم دخول مكة ، وتأديبًا للمخلَّفين عن الخروج إلى الحديبية [١].

وقال ابن زيد : ﴿ كَلَامَ اللَّه ﴾ قوله تعالى : ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ [٢][٣] ، وهذا قول ضعيف .

وردَّه الإمام الطبري ، وغيره ؛ لأن آية سورة التوبة نزلت في رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك ، وكان هذا في آخر عمره ، أما سورة الفتح فنزلت عام الحديبية .

كما أن هؤلاء المخلفين لم يمنعوا منعًا مؤبدًا ، بل منعوا من المشاركة في غزوة خيبر؛ لئلا يشاركوا في مغانمها ، فقد غزت جهينة ومزينة بعد هذه المدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤].

وعلى كلٍّ : فهذا النظم الذي جاء عليه الخبر: تيئيس للمخلفين أن يكون لهم في هذه المغانم أي نصيب ؛ لأن أخذهم منها فيه تبديل لكلمات الله ، ولا مبدّل لكلمات الله ، ويُفهم منه أن الذين يستحقون المغانم هم الذين يتحملون المغارم [٥].

- اتهام الأعراب للمسلمين بقولهم : ﴿ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ :

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٧) بتصرف ، وينظر : البحر المحيط (٩/ ٤٨٩) ، وفتح البيان (١٣/ ١٠١) .

(٢) سورة التوبة من الآية : ٨٣ .

(٣) ينظر : جامع البيان (٢٢/ ٢١٦) ، والمحرر الوجيز (٥/ ١٣١) ، وتفسير القرطبي (١٦/ ٢٧١) ، ولباب التأويل (٤/ ١٥٨) ، وإرشاد العقل السليم (٨/ ١٠٨) .

(٤) جامع البيان(٢٢/ ٢١٧)، والمحرر الوجيز (٥/ ١٣١) ، والبحر المحيط (٩/ ٤٨٩) ، والتحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٨) ، والأساس (٩/ ٥٣٦٤) .

(٥) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤١٢) ، والأساس في التفسير (٩/ ٥٣٦٤) .

وصدر هذا منهم بعد أن رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم طلبهم الذهاب معه إلى خيبر ، وقولهم هذا قول أحمق جهول فيه مغالطة فاضحة .. إذ كيف يحسدهم المؤمنون وقد دعاهم الرسول عليه السلام من قبل إلى الجهاد فأَبوْا وتخلفوا ؟ وكيف وطريق الجهاد مفتوح على مصراعيه للمجاهدين حقًّا الذين يريدون بجهادهم إعلاء دين الله !(١) .

ردّ القـــــــرآن عليهم :

وقد ردَّ الله عز وجلَّ علي اتهام رسوله وصحبه صلى الله عليه وسلم بالحسد فقال: ﴿ بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي ما الأمر كما يقول هؤلاء المنافقون من الأعراب من أنكم تمنعونهم عن اتباعكم حسدًا منكم لهم على أن يصيبوا معكم من العدو مغنمًا ، بل إنما كان لأنهم لا يفقهون من أمر الدين إلا قليلاً (٢) .

وحول الفرق بين حرفي الإضراب (٣) قال الزمخشري : الأول : إضراب معناه ، رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم ، وإثبات الحسد . والثاني : إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين ، إلى وصفهم بما هو أطمّ منه، وهو الجهل وقلة الفقه (٤) .

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤١٣) .

(٢) تفسير المراغي (٢٦/ ٩٧) .

(٣) أي في قوله : ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الفتح : ١٥] .

(٤)الكشاف (٤/ ٣٣٨) ، وينظر : إرشاد العقل السليم (٨/ ١٠٨) ، وفتح البيان (١٣/ ١٠٢) .

وقلّل فقههم لكون فهمهم مقتصرًا على الأمور الواضحة لا ينفذ إلى المهمات ودقائق المعاني، ومن ذلك ظنهم حرمانهم من الالتحاق بجيش خيبر منبعثًا على الحسد [١] .

وعلى كلٍّ : فهذا فيه إشارة إلى أن ردّهم حكم الله تعالى ، وإثبات الحسد لرسوله والمؤمنين- ناشىء من جهلهم وقلة تدبرهم [٢].

ثالثًا- اختبار الأعراب ، ودعوتهم لتصحيح موقفهم :

لما ذكر تعالى أن المخلّفين من الأعراب تخلفوا عن الجهاد واعتذروا بغير عذر، وطلبوا الخروج مع المسلمين فيما يستقبل لثقتهم في الفوز بالغنيمة ، قال تعالى ممتحنًا لهم :

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [٣].

وكرّر ذكرهم بـ﴿ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ مبالغة في الذم وإشعارًا بشناعة التخلف [٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٧٠) .

(٢) تفسير المراغي (٢٦/ ٩٧) ، وفتح البيان (١٣/ ١٠٢) ، وفتح القدير (٥/ ٥٩) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٩٣) ، والآية من سورة الفتح : ١٦ .

(٤) فتح البيان (١٣/ ١٠٢) .

والغرض من هذه الآية :

- إتاحة فرصة لهم بإثبات صدق إيمانهم في موقف ليس فيه غنيمة ، وإنما فيه خطر شديد .
- دعوة هؤلاء الأعراب إلى أن يقفوا موقف المجاهدين حقًّا ، كما تدلُّهم على ما يصححون به المسار ، ويعدلون به من موقفهم [١].
- كما أنها تفتح الطريق العملي لهم من أجل أن يتوبوا ، وهو الطريق الشاق الذي لا طمع فيه ، فالتخلف عن الجهاد نفاق ، والخلاص من النفاق يحتاج إلى مشاركة قوية ،باختبار قوى يصهر معادن الناس ، ويكشف حقائقهم [٢] .

وقد اختلف المفسّرون في هؤلاء القوم ذوى البأس الشديد هل كانوا على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلم أم لا ؟ فقيل: إنهم هوازن وثقيف . وقيل: بنو حنيفة قوم مسيلمة. وقيل : الفرس والروم. وقيل : غير ذلك [٣] . وهي أقوال محتملة ، ولكن ينقصها الدليل ، وجائز أن يكون عني بعضهم ، وجائز أن يكون عنى بهم غيرهم ، ولا قول فيه أصحّ من أن يُقال كما أخبر الله عز وجل إنهم سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد [٤] .

وعلى كل حال : فهؤلاء الأعراب امتحنوا هذا الامتحان الشديد ؛ لبيان حقيقة معدنهم ، ، فإن هم أبلوا بلاء حسنًا أعطاهم الله أجرًا حسنًا ، والتحقوا بزمرة الصادقين وكان لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وإن تعذروا بأعذار كاذبة –

---

(١)التفسير الحديث (٨/ ٥٩٧) ، والأساس (٩/ ٥٣٦٤) ، والتفسير القرآني (١٣/ ٤١٤) .

(٢) ينظر : الأساس (٩/ ٥٣٦٤) .

(٣) جامع البيان (٢٢/ ٢٢١) ، والنكت والعيون (٥/ ٣١٥) ، وزاد المسير (٤/ ١٣١)، وفتح القدير (٥/ ٦٠)

(٤) ينظر : جامع البيان (٢٢/ ٢٢١) .

كما سبق منهم عند دعوتهم للحديبية – فلهم العذاب الأليم ، قال تعالى: ﴿ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذابًا أَلِيمًا﴾ [١][٢] .

والخلاصة : فقد كشفت هذه الآيات عن صورة مشينة لهؤلاء الأعراب ، وهي أنهم كانوا يبتعدون عن الخطر وقت الشدة ويعتذرون بالأعذار الكاذبة ، ثم لا يخجلون من المسارعة حين السلامة إلى المطالبة بالغنم دون الغرم ، وهي صورة يتكرر ظهورها من بعض الناس في بعض الأوقات ، كما تكشف لنا تقبيح هذه الصورة من جهة ، وبجعل إخلاص هذه الفئات وصدق دعواها منوطين بامتحان قوي يتحملون فيه الجهد والمغرم حتى يصح لهم أن يلتحقوا بالصادقين [٣].

---

(١) الوسيط (١٣/ ٢٧٣) .

(٢) الوسيط (١٣/ ٢٧٤) ، والتفسير الحديث (٨/ ٥٩٧) .

(٣) ينظر : التفسير الحديث (٨/ ٥٩٧) .

المطلب الثاني

الأعراب وغزوة تبوك

أولاً – المعذِّرون من الأعراب .. والرسول صلى الله عليه وسلم .

عند ما استنفر النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى غزوة تبوك ، جاءه أصحاب الأعذار من الأعراب ليستأذنوه في عدم الخروج معه ، قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

قرأ الجمهور : ﴿ الْمُعَذِّرُونَ ﴾ ، وفيها وجهان :

الأول : أن لفظ : ﴿ الْمُعَذِّرُونَ ﴾ في الأصل : المعتذرون، تحولت فتحة التاء إلى العين، وأبدلت الذال من التاء، وأدغمت في الذال التي بعدها، لقرب المخرجين .

و(اعتذر) ، يطلق على أمرين : اعتذر ، إذا كذب في عذره ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ ، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا ﴾ (٢).

واعتذر إذا أتى بعذر صحيح . وأصله عليهما (معتذرون) .

وعلى هذا : فالمعتذرون يحتمل أن منهم من كذب في عذره ، ومنهم من أتى بعذر صحيح .

الثاني: هو من عذر، يقال: عذر في الأمر : إذا قصر واعتذر بما ليس بعذر.

---

(١) سورة التوبة الآية : ٩٠ .

(٢) سورة التوبة من الآية :٩٤ .

وعلى هذا : فالمعذرون ، هنا المبطلون ، لأنهم اعتذروا بأعذار لا أصل لها [١] .

ومن ثمَّ فقد انقسم المفسرون في بيان المعنى إلى فريقين :

- **فريق رأَى** أن المقصود بهم أصحاب الأعذار المقبولة ، مأخوذ من اعتذر إذا أتى بعذر صحيح . وهم مؤمنون ؛ لأنه ذكر بعدهم فريق القاعدين ، فلو كان الجميع كفارًا ، لم يكن لوصف الذين قعدوا بالكذب اختصاص ، وتعرض الكل للعذاب [٢] .

وعلى هذا الرأي : تكون الآية قد ذكرت قسمين من الأعراب : قسمًا جاء معتذرًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقسمًا قعد ولم يجئ ولم يعتذر، وهذا القسم هو الذي توعده الله بسوء المصير [٣].

- **وفريق رأَى** أن المقصود بالمعذرين : أصحاب الأعذار الباطلة ، مأخوذ من : عذر، وهو الذي يعتذر ولا عذر له .

---

(١) ينظر : معاني القراءات للأزهري (١/ ٤٦٠) . [ط/ مركز البحوث، كلية الآداب – جامعة الملك سعود ،السعودية

ط/ أولى ١٤١٢ هـ]، وحجة القراءات لعبد الرحمن بن محمد ، أبي زرعة (ص: ٣٢١) ،[ط/ دار الرسالة]، وجامع البيان في القراءات السبع لأبي عمرو الداني (ت: ٤٤٤هـ) (٣/ ١١٥٥) [ط/ جامعة الشارقة – الإمارات] ،والبدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ،للشيخ /عبد الفتاح القاضي (ت: ١٤٠٣هـ) (ص: ١٣٩) [ط/ دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان] ، وتفسير الطبري (١٤/ ٤١٧) ، والكشاف (٢/ ٥١٧) ، ومفاتيح الغيب (١٦/ ١٢٠) ،وتفسير القرطبي (٨/ ٢٢٤) .

(٢) الكشاف (٢/ ٥١٧) ، ومفاتيح الغيب (١٦/ ١٢٠) ، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٢٤) ، والمحرر الوجيز (٣/ ٦٩) ، ولباب التأويل (٢/ ٣٩٤) .

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٧٠) ، ولباب التأويل (٢/ ٣٩٤) ، والوسيط (٦/ ٣٧٦) .

وعلى هذا الرأي : تكون الآية الكريمة قد ذكرت قسمين مذمومين من الأعراب ، أولهما : قد اعتذر بأعذار باطلة . وثانيهما : لم يعتذر أصلاً ، بل قعد في داره مُصرًّا على كفره ، ولذا قال أبو عمرو بن العلاء : كلا الفريقين كان سيئًا [١] .

والرأي الأول أقرب إلى الصواب ؛ لتناسقه مع ما يفيده ظاهر الآية ، ولأنه لا توجد قرينة قوية ترجح أن المراد بالمعذَّرين هنا، أصحاب الأعذار الباطلة ، والحمل على حسن الظن أولى [٢].

وعلى هذا يكون المعنى : وجاء أصحاب الأعذار من الأعراب ليستأذنوه في عدم الخروج معه إلى غزوة تبوك ، فقبل صلى الله عليه وسلم ما هو حق منها ، وتخلف فريق آخر من الأعراب فلم يجئ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم معتذرًا [٣].

والخلاصة : ففي الآية الكريمة صورة لموقف مشين لبعض الأعراب ، فيه نفاق وكذب فاستحقّ أصحابه ما احتوته من تنديد وتوبيخ شديدين .

والآية صريحة الدلالة على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استنفر الذين أعلنوا له إسلامهم من قبائل البدو أيضًا إلى غزوة تبوك ، وما ذكر في الآية من اعتذار فريق وقعود فريق منهم لا يفيد بالطبع أن جميع من استنفروا تخلّفوا [٤] .

ثانيًا – توبيخ المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) البسيط للواحدي (١٠/ ٥٩٢) ، والمحرر الوجيز (٣/ ٦٩) ، ولباب التأويل (٢/ ٣٩٤) ، والوسيط (٦/ ٣٧٦)

(٢) لباب التأويل (٢/ ٣٩٥) ، والوسيط (٦/ ٣٧٦) .

(٣) الوسيط (٦/ ٣٧٦) .

(٤) التفسير الحديث (٩/ ٥١٤) بتصرف .

لقد وبّخ الله سبحانه وتعالى من تخلفوا عن رسوله صلى الله عليه وسلم وتكاسلوا عن الخروج معه عندما دعاهم للجهاد ، فقال : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

وجاء هذا التوبيخ في أواخر سورة التوبة بعد أن ذكر فيها من وجوب موافقة الرسول عليه الصلاة والسلام في جهاده ، وذكر مواقف لطوائف من العرب والبدو ، خاصة من تخلفوا عنه ليكون ذلك بمثابة الإعلان النهائي في تأكيد النَّهي عن التخلف عنه في كل ما يدعوهم إليه (٢).

والمراد بالنفي هنا النهي ، أي : ليس لأهل المدينة أو لغيرهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ما دعاهم للجهاد ، كما فعل بعضهم عند الخروج إلى تبوك وغيرها ؛ لأن هذا التخلف يتنافى مع الإيمان بالله ورسوله (٣).

والأعراب الذين كانوا حول المدينة : هم المنافقون من قبائل الأعراب ، قيل : هم مزينة ، وجهينة ، وأشجع ، وأسلم ، وغفار (٤).

وقيل: هذا عام يتناول جميع الأعراب الذين كانوا حول المدينة (٥).

---

(١) سورة التوبة الآية : ١٢٠ .

(٢) ينظر : التفسير الكبير (١٦/ ١٦٩) ، واللباب (١٠/ ٢٣٦)، وفتح القدير (٢/ ٤٧٢) .

(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ١٦٩) ، والكشاف (٢/ ٣٢١) ، واللباب (١٠/ ٢٣٦) .

(٤) التفسير البسيط (١١/ ٨٨) ، ومفاتيح الغيب (١٦/ ١٦٩) ، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٤٠) ، وإرشاد العقل السليم (٤/ ٩٧) ، وفتح القدير (٢/ ٤٧٢) .

(٥) التفسير الكبير (١٦/ ١٦٩) ، وينظر: اللباب (١٠/ ٢٣٦)، والوسيط (٦/ ٤٢٥) .

وهذا أولى ؛ فإن اللفظ عام ، والتخصيص تحكم ، وعلى القولين فليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يطلبوا لأنفسهم الحفظ والدعة حال ما يكون رسول الله في الحرّ والمشقة [١].

وقد خصّ « أهل المدينة ومَن حولهم من الأعراب » بالذّكر هنا ؛ لأنهم قد استُنفروا فلم ينفروا ، بخلاف غيرهم من العرب ، فإنهم لم يستنفروا ، مع كون هؤلاء لقربهم، وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] .

ثمرة الجهاد في سبيل الله تعالى:

قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [٣] .

هذا النظم الكريم يبين لنا ثواب المجاهدين مع رسول الله ، ويحمل بشارة عظيمة لهم .

واسم الإشارة في قوله: ﴿ ذَلِكَ ﴾ يعود على ما دل عليه الكلام من وجوب مصاحبته عليه الصلاة والسلام ، وعدم التخلف عنه بسبب أنهم مثابون على أنواع المتاعب، وأصناف الشدائد [٤].

أي: ذلك الذي كلفناهم به من وجوب مصاحبته صلى الله عليه وسلم سببه أن كل ما يصيبهم من أذًى وإن كان قليلاً كـ﴿ظَمَأ﴾ لقلة الماء، أو﴿ نَصَب

---

(١) المصادر السابقة .

(٢) فتح القدير (٢/ ٤٧٢) .وينظر : فتح البيان في مقاصد القرآن (٥/ ٤٢١) ،والتفسير القرآني (٦/ ٩١٤) .

(٣) سورة التوبة من الآية : ١٢٠ .

(٤) فتح القدير (٢/ ٤٧٢) ، والوسيط (٦/ ٤٢٥) ، والتحرير والتنوير (١١/ ٥٦) .

﴿لبُعد الشّقة، أو ﴿ مَخْمَصَة ﴾ – أي مجاعة – لقلة الزاد . ومن إيذاء للعدو وإن صغر ، كوطء أرضه الذي يعدّه استهانة بقوته ، فيغيظه أن تمسّه أقدام المؤمنين أو حوافر خيولهم ، أو النيل منه بجرح أو قتل أو أسر أو هزيمة ، أو غنيمة – إلا كتب الله لهم بكل ذلك عمل صالح يجزى عليه بالثواب العظيم ؛ فالله عز وجل لا يضيع أجر المحسنين [١].

والخلاصة : فهؤلاء الأعراب ما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله في جهاد ولا في غيره من شئون الأمة ومصالح الدين ، ولا أن يفضّلوا أنفسهم على نفسه فيرغبوا في الراحة والسلامة ولا يبذلوها فيما يبذل فيها نفسه الشريفة ، بل عليهم أن يصحبوه في البأساء والضراء وأن يكابدوا معه ، ويتحملوا المشاق برغبة وهمة ونشاط [٢] .

---

(١) تفسير المراغي (١١/ ٤٥) ، وينظر: البسيط للواحدي (١١/ ٨٩) ، وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٣٤) .

(٢) الكشاف (٢/ ٣٢١) ، وفتح البيان في مقاصد القرآن (٥/ ٤٢٢) ، وتفسير المراغي (١١/ ٤٥) .

المبحث الرابع

ادعاء الأَعراب الإيمان ، ومَنّهم على الرسول صلى الله عليه وسلم

المطلب الأول

ادعاء الأَعراب الإيمان ، وردّ القرآن عليهم

لقد جاء أحد وفود الأعراب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وادَّعوا الإيمان ، فردَّ القرآن عليهم هذا الادعاء ، وصحَّح لهم ما ظنوه ، قال تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [١] .

أولاً – الأعراب المقصودون وسبب النزول :

قيل : نزلت في أعراب من بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في سنة جدبة فأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السرّ، وأفسدوا طُرُق المدينة بالعُذُرات وأَغْلُوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأعطنا من الصدقة ، وجعلوا يمنُّون عليه ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية [٢].

---

(١) سورة الحجرات من الآية : ١٤ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان (٢٢/ ٣١٥) ، وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص: ٣٩٦) ،[ط/ دار الإصلاح – الدمام ، ط/ ثانية ١٤١٢ هـ]، والبغوي في تفسيره (٤/ ٢٦٨) ، والسيوطي في الدر المنثور (٧/ ٥٥٣).

وقال ابن عباس: نزلت في أعراب أرادوا أن يتسمَّوا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا، فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب ، لا أسماء المهاجرين [١].

وقال السدي : نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح : أعراب مزينة وجهينة وأسلم وغفار والديل وأشجع، قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم ، فلما استنفروا إلى المدينة تخلفوا ، فنزلت [٢] .

أقول : والقول الأول عليه كثير من المفسرين ، وأضعف الأقوال القول الأخير ؛ لأن هؤلاء قد وصفوا بالإسلام في قوله : ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [٣].

أما الأعراب الذين تحدثت عنهم سورة الفتح فالظاهر أنهم كانوا من المنافقين ، وكذبهم القرآن ، فقال : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [٤].

وأخرجه النسائي في السنن الكبرى بلفظ مقارب ، عن ابن عباس (١٠/ ٢٦٩) حديث رقم :١١٤٥٥ [ط/ مؤسسة الرسالة – بيروت ،ط/ أولى، ١٤٢١ هـ]. وذكره البزار أيضا عن ابن عباس ، وقال : وهذا الحديث لا نعلم أحداً رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا اللفظ إلا ابن عباس، ولا له طريقاً =

=عن ابن عباس إلا هذا الطريق، ولا نعلم أسند محمد بن عبيد الله، عن سعيد بن جبير غير هذا الحديث . [البحر الزخار (١١/ ٣٢٨)، ط/ مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، ط/أولى]

.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان (٢٢/ ٣١٥) ، والواحدي في أسباب النزول (ص: ٣٩٦) ، والسيوطي في الدر المنثور (٧/ ٥٨٢) .

(٢) التفسير البسيط (٢٠/ ٣٦٨) ، وزاد المسير (٤/ ١٥٤) ، وتفسير القرطبي (١٦/ ٣٤٨) ، ولباب التأويل (٤/ ١٨٥) .

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٨٩) .

(٤) سورة الفتح من الآية : ١١ .

وأيًّا ما كان فليس المراد بالأعراب العموم ، وإنما هذا فعل صدر من بعضهم ، قد يكون من بني أسد ، وقد يكون من غيرهم . قال قتادة : لم تعمّ هذه الآية الأعراب ، ولكنها في طوائف منهم [١].

وقد اختُلف في هؤلاء الأعراب ، هل كانوا مسلمين ، أم منافقين ؟ : فقيل : كانوا مسلمين بدليل قوله : ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ فالآية نفت عنهم الإيمان ، وأثبتت لهم الإسلام [٢]. وقيل : كانوا منافقين [٣] .

قال الحافظ ابن كثير: والصحيح أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدّبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد ، ولو كانوا منافقين لعُنِّفوا وفُضحوا، كما ذكر المنافقون في سورة براءة [٤].

والمراد بالأعراب هنا : الطائفة التي منّت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وليس كل الأعراب ؛ لأن هناك من الأعراب مؤمنين قد بشروا برحمة الله [٥] . كما سبق بيانه .

وقوله : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ﴾ ، أي : صدقنا بقلوبنا لكل ما جئت به، وامتثلنا لما تأمرنا به وتنهانا عنه [٦] .

ثانيًا – رد القرآن على الأعراب فيما زعموه :

يتمثل رد القرآن عليهم فيما يلي :

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ٣١٦) ، وروح المعاني (١٣/ ٣١٧) ، والدر المنثور (٧/ ٥٨٣) .

(٢) جامع البيان (٢٢/ ٣١٦) ، وتفسير ابن كثير (٧/ ٣٨٩) .

(٣)تفسير ابن كثير (٧/ ٣٨٩) ، وأضواء البيان (٧/ ٤٢٠) .

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٨٩) .

(٥) ينظر : جامع البيان (٢٢/ ٣١٥) ، وتفسير القرطبي (١٦/ ٣٤٨) ، والتحرير والتنوير (٢٦/ ٢٦٤) .

(٦) الوسيط (١٣/ ٣٢١) ، وينظر : تفسير المراغي (٢٦/ ١٤٥) ، وفتح البيان في مقاصد القرآن (١٣/ ١٥٤).

١- بيان حقيقة ما ظنوه ، وأنه يسمى إسلامًا ، لا إيمانًا .

فلما ادعى هؤلاء الأعراب الإيمان بيَّن الله عز وجل حقيقة ما هم عليه ،فقال: ﴿ قل لَّم تُؤْمِنُوا﴾ أي: لم تصدقوا تصديقًا صحيحًا عن اعتقاد قلب وخلوص نية .

﴿ وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا ﴾، أي: ولكن قولوا نطقنا بكلمة الإسلام ، واستسلمنا لما تدعونا إليه استسلامًا ظاهريًّا [١].

فقوله: ﴿ أَسْلَمْنا ﴾ بيان لما هم عليه من الإسلام بمعنى الاستسلام والانقياد الظاهري بالجوارح، دون أن يخالط الإيمان شغاف قلوبهم [٢].

وعن فائدة التعبير بقوله : ﴿ قُل لَّم تُؤْمِنُوا ﴾ دون قوله : (قل لا تقولوا آمنا)

قال الزمخشري : أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً، ودفع ما انتحلوه ، فقال: ﴿ قُل لَّم تُؤْمِنُوا ﴾ ورُوعي في هذا النوع من التكذيب أدب حسن حين لم يصرح بلفظه ، حيث لم يقل: كذبتم ، ووضع ﴿ قُل لَّم تُؤْمِنُوا ﴾ الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه .

واستغنى بجملة :﴿ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴾ عن أن يقال: لا تقولوا آمنا، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهى عن القول بالإيمان [٣].

وقال : ﴿ قُولُوا أَسْلَمْنا ﴾ ، ولم يقل : (ولكن أسلمتم) تعريضًا بوجوب الصدق في القول ليطابق الواقع، فهم يشعرون بأن كذبهم قد ظهر، وذلك مما يتعير به ، أي الشأن أن تقولوا قولًا صادقًا [٤] .

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم (٨/ ١٢٣) ، وفتح القدير (٥/ ٧٩) ، وفتح البيان (١٣/ ١٥٤) ، والوسيط (١٣/ ٣٢١) .

(٢) المصادر السابقة (١٣/ ٣٢١) .

(٣) الكشاف (٤/ ٣٧٦) بتصرف .

(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٦٥) بتصرف .

٢- **بيان العلّة التي من أجلها لم يكن الأعراب مؤمنين** : فقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ هو بيان للعلة التي من أجلها لم يكن الأعراب مؤمنين، بل كانوا مجرد مسلمين .. لأن الإيمان لم يدخل في قلوبهم بعد ، وأنه ما زال مجرد كلمة تجرى على ألسنتهم [١].

و« لَمَّا » لفظ يفيد توقع حصول الشيء الذي لم يتم حصوله ، أي: قولوا أسلمنا، والحال أنه لم يستقر الإيمان في قلوبكم بعد ، فإنه لو استقرَّ في قلوبكم لما سلكتم هذا المسلك، ولما مننتم على الرسول صلّى الله عليه وسلّم بإسلامكم [٢] .

٣- **بيان أن وصفهم بالأعراب لا أَثر له في قبول الأعمال** :

قال تعالى:﴿ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِنْ أَعْمالِكُمْ ﴾ ، أي لا ينقصكم من أجورها شَيْئًا ، بل يوفيكم إيّاها أحسن ما يكون ، من لاتَ يليت ، إذا نقص [٣] .

فإن هؤلاء الأعراب إن أطاعوا الله ورسوله كانوا في زمرة المؤمنين حقًّا، وكان لهم كل ما للمؤمنين عند الله من رحمة ومغفرة وفضل [٤].

٤- **التعريض بالأعراب ، وبيان صفة المؤمنين الحقيقية** :

فبعد أن ادعوا الإيمان بمجرد نطقهم بالشهادتين ، وفعلهم لبعض الطاعات ظنوا أنهم من أهل الإيمان الحق ، فبيَّن الله لهم أن المؤمنين لهم صفات لم يتصفوا بها بعد ، قال تعالى:

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤٥٦) .

(٢) الوسيط (١٣/ ٣٢١) وينظر : فتح القدير (٥/ ٧٩) ، والتحرير والتنوير (٢٦/ ٢٦٥) .

(٣) ينظر: الصحاح تاج اللغة (١/ ٢٦٥) ، ومقاييس اللغة (٥/ ٢٢٣) ، وأنوار التنزيل (٥/ ١٣٧) .

(٤) التفسير القرآني (١٣/ ٤٥٧) باختصار .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (١) .

فالمؤمنون هم الذين آمنوا بالله ورسوله ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ ، أي: لم يدخل قلوبهم شيء من الريبة أو الشك فيما أخبرهم به نبيهم صلّى الله عليه وسلّم .

وأتى سبحانه بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ التي للتراخي، للتنبيه على أن نفى الريب عنهم ليس مقصورًا على وقت إيمانهم فقط ، بل هو مستمر بعد ذلك إلى نهاية آجالهم .

ثم أتبع ذلك ببيان الثمار الطيبة التي ترتبت على هذا الإيمان الصادق فقال: ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٢) .

٥- توبيخ الأعراب ، وبيان أن الله تعالى يعلم حقيقة كل شيء :

ثم أمر الله رسوله صلّى الله عليه وسلّم أن يوبخ هؤلاء الأعراب فقال : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّه بدِينِكُمْ ﴾ ، والاستفهام في : ﴿ أَتُعَلِّمُونَ ﴾ للتوبيخ ، وقد أيَّد التوبيخ بجملة الحال في قوله:﴿ والله يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، وفي هذا تجهيل ، إذ حاولوا إخفاء باطنهم عن المطِّلع على كل شيء سبحانه ، وجملة ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تذييل مقرر لما قبله ، ومؤكد له (٣) .

---

(١) سورة الحجرات الآية : ١٥ .

(٢) الوسيط (١٣/ ٣٢٢) بتصرف . وينظر : البحر المحيط (٩/ ٥٢٤) ، وإرشاد العقل السليم (٨/ ١٢٤) .

(٣) الكشاف (٤/ ٣٧٨) ، والبحر المحيط (٩/ ٥٢٤) ، وتفسير أبي السعود (٨/ ١٢٤) ، وروح المعاني (١٣/ ٣١٩) ، والتحرير والتنوير (٢٦/ ٢٦٩) .

قيل: إنهم لما سمعوا قوله تعالى: ﴿قُل لَّم تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحلفوا أنهم مؤمنون فنزل قوله : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ (١).

قال ابن عاشور –بعد أن ذكره– ولم يرو بسند معروف ، ولو كان كذلك لوبخهم الله على الأيمان الكاذبة ،كما وبخ المنافقين في سورة براءة بقوله :﴿ .. وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٢) ، ولم أرَ ذلك بسند مقبول (٣) .

وأُعيد فعل ﴿قُلْ﴾ ليدلّ على أن المقول لهم هذا هم الأعراب الذين أُمر أن يقول لهم :

﴿ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، فأعيد لما طال الفصل بين القولين بالجمل المتتابعة (٤).

ثالثًا– دلالة الآية على الفرق بين الإيمان والإسلام :

دلَّ قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّم تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾(٥) على أن الإيمان أَخصّ من الإسلام ،كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدلُّ عليه حديث جبريل (عليه السلام) حين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : مَا الإِيمَان ؟ قال: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ ، وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا

---

(١) البسيط للواحدي (٢٠/ ٣٧٠) ، وزاد المسير (٤/ ١٥٥) ، ومعالم التنزيل (٤/ ٢٦٩) ، وتفسير القرطبي (١٦/ ٣٤٩) ، ولباب التأويل (٤/ ١٨٥) .

(٢) سورة التوبة من الآية :٤٢ .

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٦٨) .

(٤) السابق (٢٦/ ٢٦٨) .

(٥) سورة الحجرات من الآية : ١٤ .

الإِسْلاَمُ ؟ قَالَ: «الإِسْلاَمُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ...» الحديث [١].

فقد سأله جبريل عن الإسلام ، ثم عن الإيمان، فترقى من الأَعم إلى الأَخصّ [٢].

قال الشوكاني : فالمرجع في الفرق بينهما هو هذا الذي قاله الصادق المصدوق ، ولا التفات إلى غيره مما قاله أهل العلم . وأمَّا ما في الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الإسلام والإيمان فذلك باعتبار المعاني اللغوية والاستعمالات العربية ، والواجب تقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية، والحقيقة الشرعية هي هذه التي أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجابة سؤال السائل له عن ذلك بها [٣].

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ١١٥) كتاب : تفسير القرآن ، باب قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعة ...﴾ [لقمان : ٣٤] حديث رقم : ٤٧٧٧ ، وصحيح مسلم (١/ ٣٩) ،كتابَ : الإيمان ، باب : الإيمان ما هو، وبيان خصاله ، حديث رقم : ٩ .

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٨٩) .

(٣) فتح القدير (٥/ ١٠٦) باختصار ، وهناك أقوال أخرى في هذه المسألة ، منها :

١- أنه لا فرق بين الإيمان والإسلام ، وهذا رأي المعتزلة والخوارج ، وطائفة من أهل الحديث كالبخاري ، فإنه يرى أن الإسلام والإيمان مترادفان ، كما نقل عنه ابن حجر [فتح الباري (١/ ١١٤)]. وهو -أيضا- رأي ابن حزم ، واستدلّ بقوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ · فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات : ٣٥، ٣٦] [الفصل في الملَل والأهواءَ والنحل لابن حزم الظاهري (ت: ٤٥٦هَ) (٣/ ١٢٧) ، ط/ مكتبة الخانجي ، القاهرة].

ويردّ عليه : بأن هناك فرقًا ، فلمَّا وصف الله تعالى أهل البيت كلهم وصفهم بالإسلام ، وذلك لأن امرأة لوط (عليه السلام) من أهل بيته ، وهي مسلمة في الظاهر ، لكنها كافرة في الباطن ، ولما وصف الله تعالى المخرجين الناجين وصفهم بالإيمان . [مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/ ٤٧٣)] .

٢- أنه إذا ورد أحد هذين اللفظين مفردا عن الآخر فالمقصود به دين الإسلام كله ، ولا فرق حينئذ بين الإسلام والإيمان . وإذا اقترن أحدهما بالآخر ، فإنّ الإسلام يفسر بالاستسلام الظاهر الذي هو قول اللسان ، وعمل الجوارح ، ويصدر من المؤمن كامل الإيمان ، وضعيف الإيمان ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ، ويفسر الإيمان بالاستسلام الباطن الذي هو إقرار القلب وعمله ، ولا يصدر إلاَ من المؤمن حقًا ، كما قال تعالى : ﴿

المطلب الثاني

مَنّ الأعراب على الرسول صلى الله عليه وسلم بإسلامهم ،وردّ القرآن عليهم

أشار الله تعالى هنا إلى نوع آخر من جفاء هؤلاء الأعراب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجهلهم ، وقلة إدراكهم ، فقال : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) ، وفي ذكر هذا عنهم زيادة بيان لقبيح فعلهم (٢) .

والمنّ: تعداد النعم على المنعم عليه ، أو اصطناع الجميل، يقال : مَنَنْت عَلَيْهِ مَنًّا ، عَدَدْت لَهُ مَا فَعَلْت لَهُ مِن الصَّنَائِع (٣) .

وهو مذموم من الخلق ، ممدوح من الله تعالى، إذ هو من العباد تكدير، ومن الله تعالى إفضال وتذكير (٤).

إنَّما الْمُؤْمنونَ الذين إذَا ذُكرَ اللهُ وجلَتْ قُلُوبهُمْ وإذَا تليتْ عَلَيْهمْ آيَاته زَادَتْهمْ إيمَانًا ... ﴾ الآيات،[الأنفال: ٢ – ٤]. وبهذا المعنى يكون الإيمان أعلى ، فكل مؤمن مسلم ، ولا عكس ، وهو رأي ابن تيمية وغيره . [مجموع الفتاوى (٧/ ١٣) ، وتفسير سورة الحجرات، لمحمد بن صالح العثيمين (ص: ٦٣)[ط/ دار الثريا الرياض ، ط/ أولى، ١٤٢٥ هـ] .

وللمسألة تفصيل وأدلة وردود ليس هذا موطن ذكرها .[ينظر : مجموع الفتاوى (٧/ ١٣) ، والتوحيد لأبي منصور الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ) (ص: ٣٩٤) ، ط/ دار الجامعات المصرية – الإسكندرية]. وفتح الباري (١/ ١١٤) ، وإرشاد الساري (١/ ١١١) ، وشرح النووي على مسلم (١/ ١٤٥) ، وأصول الدين لجمال الدين أحمد بن سعيد الغزنوي الحنفي (ت: ٥٩٣هـ) (ص: ٢٦١) ، ط/ دار البشائر الإسلامية – بيروت ، لبنان ، ط/ أولى، ١٤١٩ هـ] .

(١) سورة الحجرات الآية : ١٧ .

(٢) التفسير الكبير (٢٨/ ١١٧) بتصرف ، وينظر : الوسيط (١٣/ ٣٢٣) .

(٣) ينظر : المفردات (ص: ٧٧٨) ، ومقاييس اللغة (٥/ ٢٦٧) ، ولسان العرب (١٣/ ٤١٨) .

(٤) إرشاد الساري (٣/ ٣٢) ، وينظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، لبدر الدين العينى (ت: ٨٥٥هـ) (٨/ ٢٩٧) [ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت] ، وفتح البيان (١٣/ ١٥٦) ، والوسيط (١٣/ ٣٢٣) .

وقوله :﴿ يَمُنُّونَ﴾ استئناف ابتدائي أريد به إبطال ما أظهره بنو أسد أو غيرهم للنبي صلى الله عليه وسلم من مزيتهم إذ أسلموا من دون إكراه بغزو[١].

رد القرآن على جفاة الأعراب :

لما صدر من هؤلاء الأعراب هذا المنّ ردَّ القرآن عليهم ردًّا فيه تأديب وتهذيب لأخلاقهم ،وتقويم لسلوكهم . وتمثل رد القرآن عليهم في الآتي :

١- **النهي عن التفاخر بإسلامهم .**

لقد أمر الله تعالى نبيه صلّى الله عليه وسلّم أن يردّ على هؤلاء الأعراب بما يدلّ على غفلتهم ، فقال: ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ﴾ [٢] ، أي: قل لهم لا تتفاخروا عليّ بسبب إسلامكم ؛ لأن ثمرة هذا الإسلام يعود نفعها عليكم لا عليّ [٣].

٢- **بيان أن المِنَّة هي لله تعالى ، لا لهم** ، قال تعالى: ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ.. ﴾[٤] [٥].

فما حدث من هؤلاء الأعراب هو من جهلهم ، وفساد تصورهم للإيمان ؛ لأن ثمرات هذا الإيمان لا تعود على الرسول ، بل تعود عليهم ؛ لأنهم خرجوا بهذا الإيمان من الظلام إلى النور، وتلك نعمة لا يقدر أن يقوم

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٦٩) باختصار .

(٢) سورة الحجرات من الآية : ١٧ .

(٣) ينظر : التفسير القرآني (١٣/ ٤٦٠) ، والوسيط (١٣/ ٣٢٣) ، وتفسير المراغي (٢٦/ ١٤٨) .

(٤) سورة الحجرات من الآية : ١٧ .

(٥) الوسيط (١٣/ ٣٢٣) .

بشكرها إنسان، فعجيب أن يمنّ الآخذ على المعطى ، ولكن هكذا يفعل الجهل بأهله ، وفي هذا إيماء إلى أنهم كاذبون في ادعائهم الإيمان [١].

وهنا يطرح سؤال ، وهو: إن قيل كيف منَّ على الأَعراب بالهداية إلى الإيمان مع أنه بيَّن أنهم لم يؤمنوا ؟

فالجواب عنه من وجوه ، أحدها : أنه تعالى لم يقل: بل الله يمن عليكم أن رزقكم الإيمان، بل قال: ﴿ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ ..﴾ وإرسال الرسل بالآيات البينات هداية .

ثانيها: هو أنه تعالى يمنّ عليهم بما زعموا، فكأنه قال : أنتم قلتم آمنَّا، فذلك نعمة في حقكم حيث تخلصتم من النار، فقال هداكم في زعمكم . ثالثها : أن الله تعالى بيّن بعد ذلك شرطًا فقال: ﴿ إِنْ كُنتم صَادِقِينَ ﴾ [٢].

والحق أن هداية الله لعبده إلى الإيمان مِنَّة منه سبحانه لا تدانيها مِنَّة ، ونعمة لا تقاربها نعمة، وعطاء ساميًا جليلاً [٣].

٣- دعوة الأعراب إلى أن يحققوا حقيقة الإيمان :

ففي قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾ دعوة لهؤلاء الأعراب أن يحقّقوا حقيقة الإيمان الذي يدَّعونه ، وأنهم إذا كانوا من أهل الإيمان حقّا، فليحمدوا الله وليشكروه على أن يسَّر لهم الطريق الموصل إلى الإيمان الحق [٤].

٤- تصحيح معتقد الأعراب :

لما صدر منهم هذا المنّ السابق قال الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٥] .

---

(١) ينظر : التفسير القرآني (١٣/ ٤٦٠) ، وفي ظلال القرآن (٦/ ٣٣٥١) ، وتفسير المراغي (٢٦/ ١٤٨) .

(٢) التفسير الكبير (٢٨/ ١١٨) بتصرف . وينظر :اللباب في علوم الكتاب (١٧/ ٥٦٤)

(٣) الوسيط (١٣/ ٣٢٤) .

(٤)التفسير القرآني (١٣/ ٤٦١) بتصرف . وينظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٣٥٠) ، وإرشاد العقل السليم (٨/ ١٢٤).

(٥) سورة الحجرات الآية : ١٨ .

وجاء تذييل الآية بذلك ؛ لبيان أن الله لا يغيب عنه شيء ، ويعلم كل غائبة في السماء والأرض ؛ فإنهم كانوا في الجاهلية لا تخطر ببال كثير منهم أصول الصفات الإلهية [١].

وتأكيد الخبر بـ ﴿ إِنَّ ﴾ لأنهم بحال من ينكر أن الله يعلم الغيب ، فكذبوا على النبي صلى الله عليه وسلم مع علمهم أنه مرسل من الله فكان كذبهم عليه مثل الكذب على الله . وقد أفادت هذه الجملة تأكيد مضمون جملتي: ﴿ والله يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [٢].

المبحث الخامس

معيار ذم الأعراب أو مدحهم ، ومنهج القرآن في ذلك.

سبق الحديث عن بعض طوائف الأعراب ، منهم مَن استحق الذم ، ومنهم من مدحه الله تعالى ، وباستقراء ما سبق من حديث القرآن عنهم ، وذكره لبعض أحوالهم وصفاتهم ، نستطيع أن نستخلص أمورًا هامة يجدر بنا أن نتحدث عنها ، وذلك فيما يأتي :

أولاً- أسباب ذم بعض الأعراب :

كان من أسباب ذم بعض الأعراب في القرآن الكريم ، ما يلي :

١- كفرهم بالله ورسوله ، ونفاقهم الشديد ، بل وتمهرهم فيه ، وإضمار السوء للإسلام ، وتربصهم بالمسلمين .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٧١) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٧١) ، وروح المعاني (١٣/ ٣٢٠) ، وفتح البيان (١٣/ ١٥٦) .

٢- بعدهم عن سماع القرآن ، وعن تلقى العلم ، والبعد عن هدي النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، بسبب انشغالهم برعي الأغنام ، وتربية المواشي ، وغير ذلك [١] . وقد سبق بيانه .

٣- تخلفهم عن دعوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حينما دعاهم للخروج معه إلى الحديبية . وقد استحق هؤلاء الأعراب التوبيخ والذم ، والتوعد بسوء المصير على هذا التخلف للآتي :

- أن اعتذارهم الذي صدر منهم لم يكن حقيقيًّا.

- أنهم تعمدوا الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

-أنهم ظنوا بالله ، وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم ظن السوء ، فقد توهموا أن الرسول والمؤمنين سيقتلون على أيدي المشركين ، وأنهم لن يعودوا إلى أهليهم أبدًا [٢] .كما سبق .

٤- ومن أسباب ذم بعض الأعراب تخلفهم عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم في غزوة تبوك . وسبق بيان ذلك .

٥- أنه قد صدر منهم بعض جفاء للنبي صلى الله عليه وسلم ، وادعوا مقامًا لم يصلوا إليه بعد ، ومنُّوا علي النبي صلى الله عليه وسلم بإسلامهم ، فكان هذا من جفائهم [٣].

---

(١) ينظر : التفسير البسيط (١١/ ١٣) ، واللباب (١٠/ ١٧٨) ، وزهرة التفاسير (٧/ ٣٤٢٢)، والتحرير والتنوير (١١/ ١٢).

(٢) الوسيط (١٣/ ٢٧٠) . وينظر : التفسير الكبير (٢٨/ ٧٤) ، وتفسير ابن كثير (٧/ ٣٣٧) ، ولباب التأويل (٤/ ١٥٧) .

(٣) ينظر : تفسير ابن كثير (٧/ ٣٣٧) ، ولباب التأويل (٤/ ١٥٧) ، والوسيط (١٣/ ٢٧٠).

ثانيًا- سبب مدح بعض الأعراب : كان السبب في مدح بعض الأعراب هو إيمانهم بالله واليوم الآخر ، وإنفاقهم في سبيل الله ابتغاء مرضات الله ورسوله . وقد سبق بيان ذلك .

ثالثًا - المعيار الذي حكم به القرآن عليهم :

كان الأساس الذي حكم القرآن به عليهم من ذم أو مدح هو الكفر ، والإيمان :

فمن ذُم ووُبِّخ منهم : فلنفاقه وكفره ، ومخالفته أمر رسول الله صلى عليه وسلم ، لا لكونه أعرابيًّا ، أو بدويًّا ، أو غير ذلك . ومَن مدح : فلإيمانه وتقواه ، وفعله الصالحات ابتغاء مرضات الله ، لا لكونه أعرابيًّا ، أو عربيًّا ، أو بدويًّا .

رابعًا – منهج القرآن في ذم الأعراب أو مدحهم :

يتضح منهج القرآن في ذلك من خلال الآتي :

١- عندما حكم القرآن عليهم في سورة التوبة بأنهم أشد كفرًا ونفاقًا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله – أتبع ذلك بتفصيل أحوالهم ، حتى لا يظن أن الجميع كذلك ، فبعد الوصف العام شرع في بيان بعض أحوال المنافقين ، وعقابهم [١] .

ثم بيّن بعد ذلك أن من الأَعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، وأنهم من أهل رحمته .

فلم يكتف القرآن ببيان من كفر منهم ومن نافق ، وإنما ذكر من آمن منهم وأثنى عليه ، وبشرهم بالرحمة ، وعظيم الأجر .

وكان ابن سيرين يقول : إذا تلا أحدكم :﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا... ﴾ فلْيَتْلُ الآية الأخرى : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ .. ﴾ الآية [٢].

وجاء تذييل هذه الآية بقوله : ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٣]– إشارة إلى فضل مَن آمن منهم بالله واليوم الآخر، وأنهم كغيرهم من أهل الحاضرة [٤].

---

(١)ينظر : إرشاد العقل السليم (٤/ ٩٥) .

(٢) الدر المنثور (٤/ ٢٦٦) ، وإرشاد العقل السليم (٤/ ٩٥) ، وروح المعاني (٦/ ٦) .

(٣) سورة التوبة من الآية : ٩٩ .

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٤٩) .

٢- كما أن القرآن الكريم لم يذمهم لمجرد وصفهم بالأعراب ، أو لكونهم أهل بادية . قال الشيخ السعدي : لم يذمهم الله تعالى على مجرد تعربهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله تعالى [١].

وعندما وصفهم بما وصفهم به من شدة وجهل ، فهذا راجع لطبيعة البداوة ، وبعدهم عن سماع التنزيل . كما سبق بيانه .

قال صاحب المنار: فالأعراب أجدر بالجهل من الحضر بطبيعة البداوة ، لا بضعف أفهامهم، أو بلادة أذهانهم ، أو ضيق نطاق بيانهم ، فعنهم أخذ رواة العربية كثير من مفردات العربية وأساليبها » [٢] .

٣- أن القرآن عندما وبّخ بعض الأعراب في بعض المواضع أتبعه ببيان ما فعلوه ، كما جاء في سورتي التوبة ، والفتح .

٤- أنه لم يحكم عليهم حكمًا عامًّا ؛ لأن الأعراب ليسوا طائفة واحدة ، وإنما هم طوائف ، بل إن الطائفة الواحدة فيها المؤمن ، والمنافق ، والمطيع ، والعاصي .

٥- كما أن القرآن لم يتركهم على ما هم عليه من نفاق وغيره ، بل فتح لهم باب التوبة ، ودعاهم أكثر من مرة إلى طاعة الله ورسوله ، وأنهم إذا فعلوا ذلك أعطاهم الله أجرًا حسنًا ، وأنهم سوف يأخذون أجرهم كاملاً ، لا ينقص منه شيء .

---

(١) السابق (ص: ٣٤٩) .

(٢) تفسير المنار (١١/ ٨) بتصرف . وينظر : تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي (ت: ١٣٥٦هـ) (١/ ٣٦)[ط/ دار الكتاب العربي] .

ومما يدلّ على ما سبق :

قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾[١] ، وقوله : ﴿ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شيئًا﴾ [٢] .

فيستفاد من النظمين الكريمين : أنه لو كان ذمهم لكونهم أعرابًا ، لما كان لهذا الوعد أي فائدة [٣].

وأيضًا أنهم إن أطاعوا الله ورسوله كانوا كغيرهم ، وأنه سوف يعطيهم أحسن الأجر، عطاء غير منقوص .

والمعنى : إن أطاع هؤلاء الأعراب الله ورسوله كانوا في المؤمنين حقًّا، وكان لهم كل ما للمؤمنين عند الله من رحمة ورضوان .. فإن صفة «الأعراب» التي وُصفوا بها، لا أثر لها في أعمالهم ، ومع هذا فإنهم في أي وقت يدخلون فيه إلى الإيمان دخولاً صحيحًا، يلحقون بالمؤمنين، ويجزون بأعمالهم جزاء مَن سبقوهم إلى الإيمان [٤].

وهذا ميزان دقيق ، ومنهج حكيم ، وضع الأمور في موضعها الصحيح .

فالقرآن لا يمدح أحد بنسبه ، ولا يذم بنسبه ، وإنما يمدح المؤمن لإيمانه ، ويذم الكافر لكفره . وقد ذمَّ القرآن أبا لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، وسجل ذمهما في سورة المسد ، وهما من العرب .

---

(١) سورة الفتح من الآية : ١٦ .

(٢) سورة الحجرات من الآية : ١٤ .

(٣) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ١٣٧) .

(٤) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤٥٧) .

قال ابن تيمية : ليس في كتاب الله آية واحدة يمدح فيها أحد بنسبه ، ولا يذم بنسبه ، وإنما يمدح بالإيمان والتقوى ، ويذم بالكفر والفسوق والعصيان [١].

– ومما يدلُّ على منهج القرآن في التعامل مع الأعراب ما جاء تطبيقه عمليًّا من هدي النبي صلى الله عليه وسلم .

فقد أثنى على بعض طوائف الأعراب ، ممن أحسنوا منهم ، ومن ذلك :

– ما أخرجه البخاري عن أبى هريرة (رضي اللَّه عنه) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:« قُرَيْشٌ، وَالأَنْصَارُ، وَجُهَيْنَةُ، وَمُزَيْنَةُ، وَأَسْلَمُ، وَأَشْجَعُ، وَغِفَارُ مَوَالِيَّ[٢] لَيْسَ لَهُمْ مَوْلًى دُونَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » [٣].

– وما رُوي أنه عليه السلام قال: «أَسْلَمُ سَالَمَهَا اللَّهُ، وَغِفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا» [٤].

– وقوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ جُهَيْنَةُ، وَمُزَيْنَةُ، وَأَسْلَمُ، وَغِفَارُ، خَيْرًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، وَبَنِي أَسَدٍ، وَمِنْ بَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ غَطَفَانَ ، وَمِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَة » فَقَالَ رَجُلٌ: خَابُوا وَخَسِرُوا، فَقَال: «هُمْ خَيْرٌ مِنْ

---

(١) دقائق التفسير لابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) (٢/ ٢٣) [ط/ مؤسسة علوم القرآن – دمشق ، ط/ثانية، ١٤٠٤ هـ].

(٢) أي : أنصاري ، و" مَوالِيَّ " بتشديد الياء إضافة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو المناسب هنا ، ويروى "موالي " بتخفيف التحتانية ، والمضاف محذوف، أي : موالي الله ورسوله ، ويدل عليه قوله : " ليس لهم مولًى دون الله ورسوله " . فتح الباري (٦/ ٥٤٣) ، وينظر : إرشاد الساري (٦/ ١٢) ، والنهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٢٨) .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) صحيح البخاري (٤/ ١٨١) كتاب : المناقب ، باب: ذكر أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع ، حديث رقم : ٣٥١٤ .

بَنِي تَمِيم، وَمِنْ بَنِي أَسَد، وَمِنْ بَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ غَطَفَان، وَمِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَة » [١].

قال الحافظ ابن حجر – بعد أن ذكر بعض هذه الروايات – :

وهذه فضيلة ظاهرة لهؤلاء القبائل ، والمراد من آمن منهم ، والشرف يحصل للشيء إذا حصل لبعضه . قيل : إنما خصُّوا بذلك ؛ لأنهم بادروا إلى الإسلام ، فلم يسبوا كما سبي غيرهم ، وهذا إذا سلم يحمل على الغالب [٢] .

- ومع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا لبعض الأعراب لعظيم خلقه ، إلا أنه قد كره فعل بعضهم لما صدر منه ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَهْدَى لِرَسُول اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بَكْرَةً فَعَوَّضَهُ مِنْهَا سِتَّ بَكَرَاتٍ فَتَسَخَّطَهَا .. فقال : « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَقْبَلَ هَدِيَّةً إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ »[٣] .

وكره النبي عليه السلام قبول الهدية ممن كان الباعث له عليها طلب الاستكثار [٤] .

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٨١) كتاب المناقب ، باب : ذكر أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع ، حديث رقم :٣٥١٥.

(٢) فتح الباري (٦/ ٥٤٣) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٥/ ٧٣٠) باب : في ثقيف وبني حنيفة ، حديث رقم : ٣٩٤٥ ، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٢٠٢) حديث رقم : ٦٥٥٨ [ط / مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط/أولى، ١٤٢١ هـ] ، والإمام أحمد في المسند (٤/ ٤٢٤) حديث رقم : ٢٦٨٧ ، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٢٥٣) .

والبكْر الفتي من الإبل، والأنثى بكرة . النهاية في غريب الحديث والأثر(١/ ١٤٩) .

(٤) ينظر : تحفة الأحوذي (١٠/ ٣٠٨) .

وخصّ المذكورين بهذه الفضيلة ؛ لأَنهم لمكارم أَخلاقهم لا تطمح نفوسهم إِلى ما ينْتَظر إِليه الرعاع من استكثار العِوَض على الهديَّة ، فلا تدافع بينه وبين ما ورد من أنه قبل من غيرهم [١] .

قال ابن كثير : لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن : مكة والطائف والمدينة واليمن، فهم ألطف أخلاقًا من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء [٢] .

وهذا كله يدل على منهج القرآن في الحكم على الأَعراب ، وميزانه الدقيق الذي لا خلل فيه ولا اضطراب .

(١) ينظر : السابق (١٠/ ٣٠٨) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٢) .

الخاتمة

الحمد لله الذي أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، فله الحمد في البدء والختام ، والصلاة والسلام على خير الأنام ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

أمَّا بعد : فهذه بعض نتائج هذا البحث أذكرها فيما يلي:

١- أن لفظ الأعراب الوارد في الآيات – محل الدراسة – لا يشمل كل أفراد الأعراب ، بل هو من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده .كما سبق بيانه .

٢- ذُكر لفظ الأعراب في القرآن عشر مرات ، لم يمدحهم الله تعالى إلا في موضع واحد ، وفي سورة الحجرات صحّح لهم ما ظنوه إيمانًا ، وسمَّاه إسلامًا .

٣- أن الأعراب في القرآن طوائف مختلفة ، منهم المنافق والكافر، والمؤمن ، وهم في ذلك كأهل الحضر ، إلا أن كفار البادية ومنافقيها أشد كفرًا ونفاقًا –كما نص عليه القرآن– وسبق بيانه .

٤- أن معيار الذم والمدح هو الكفر والإيمان ، فلم يذم الله الأعراب لكونهم أعرابًا ، وإنما ذم منهم من خالف أمره ، وأعرض عن اتباع هدي نبيه صلى الله عليه وسلم .

٥- أن من هجر العلم الشرعي وبعد عنه ،كان أقرب إلى الشر من غيره ؛ لأن الله ذم الأعراب، لكونهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .كما سبق ذكره .

٦- أن ساكن البادية يجهل كثيرًا من أمور دينه ، ويحرم من كثير من المعارف ، لذا سكن البادية غير محمود ، إلا إذا كان فرارًا من الفتن ونحو ذلك . كما سبق ذكره .

٧- أن البعد عن مواطن الشرف ، والانعزال بعيدًا عن تلقي العلم مما يذم فاعله .

٨- أن القرآن لم يذمّ البيئة لكونها بيئة ، ولكن يذمّ من ينشغل بها بعيدًا عن سماع العلم ومجالسة العلماء .

٩- أن من الأعراب من كان له مواقف مشينة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد تخلفوا عن الحديبية ، وعن تبوك .

١٠- من خصال الأعراب الجفاء والغلظة ، والشدة ؛ لبعدهم عن مواطن العلم والخير ، وتأثير البيئة فيهم ، وغير ذلك . والحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع

أولاً – القرآن الكريم .

ثانيًا– الكتب الأخرى .

١– إرشاد السّاري لشرح صحيح البخاري ، لشهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني المصري (ت: ٩٢٣هـ) ، ط/ المطبعة الكبرى الأميرية– مصر ط/ سابعة ، ١٣٢٣ هـ .

٢– إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود محمد بن أحمد العمادي (ت: ٩٨٢هـ) ،ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣– الأساس في التفسير ، للشيخ سعيد حوي ، ط/دار السلام – القاهرة ط/ثانية ١٤٠٩هـ .

٤– أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ) ، ط/ دار الفكر للطباعة والنشر– بيروت ط/ ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م.

٥– أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) ، ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت ط/أولى – ١٤١٨ هـ .

٦– البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، ط/ دار الفكر – بيروت ١٤٢٠ هـ .

٧– البسيط لأبي الحسن الواحدي (ت ٤٦٨ هـ) ، ط/عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ط/ أولى، ١٤٣٠ هـ .

٨– تاج العروس من جواهر القاموس ، لمحمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، ، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (ت :١٢٠٥هـ) ، ط/ دار الهداية .

٩– التحرير والتنوير لسماحة الشيخ /محمد الطاهر ابن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ)، ط/الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م .

١٠– تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفورى (ت: ١٣٥٣هـ)،ط/ دار الكتب العلمية – بيروت .

١١– التفسير الحديث ، لمحمد عزة دروزة ، ط/دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ١٣٨٣ هـ .

١٢– تفسير الشيخ / أحمد مصطفى المراغي (ت :١٣٧١هـ) ، ط/ مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط/أولى، ١٣٦٥ هـ .

١٣– تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) ط/ دار طيبة للنشر والتوزيع، ط/ ثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

١٤- التفسير القرآني للقرآن للأستاذ/عبد الكريم الخطيب ، ط/ دار الفكر العربي – القاهرة .

١٥- تفسير المنار لرشيد رضا (ت: ١٣٥٤هـ) ، ط/ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٠م .

١٦- التفسير الوسيط للقرآن ا.د/ محمد سيد طنطاوي ، ط/ دار نهضة مصر ، الفجالة ط/ أولى .

١٧- تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري (ت: ٣٧٠هـ) ، ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت ط/أولى، ٢٠٠١م .

١٨- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للشيخ /عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت: ١٣٧٦هـ) ، ط/ مؤسسة الرسالة ، ط/أولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م .

١٩- جامع البيان في تأويل آي القرآن للإمام الطبري (ت: ٣١٠هـ) ، ط/ مؤسسة الرسالة بتحقيق الشيخ / أحمد محمد شاكر ، ط/ أولى ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٢٠-الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه ، للإمام البخاري (ت:٢٥٦هـ) ، ط/دار طوق النجاة ، ط/ أولى، ١٤٢٢هـ .

٢١- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت: ٦٧١هـ) ، ط/ دار الكتب المصرية – القاهرة .

٢٢- حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي (عنايه القاضي وكفاية الراضي) لشهاب الدين الخفاجي المصري ، ط/ دار صادر – بيروت.

٢٣- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، لأبي العباس أحمد بن يوسف ، المعروف بالسمين الحلبي (ت :٧٥٦هـ) ، ط/دار القلم –دمشق ، ط/ أولى ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٢٤- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (ت :٩١١هـ) ، ط/ دار الفكر – بيروت .

٢٥- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام شهاب الدين الآلوسي (ت: ١٢٧٠هـ) ، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت ، ط/أولى ١٤١٥ هـ .

٢٦- زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج ابن الجوزي (ت :٥٩٧هـ) ،ط/ دار الكتاب العربي – بيروت ط/أولى .

٢٧- الزاهر في معاني كلمات الناس ، لأبي بكر الأنباري (ت: ٣٢٨هـ) ط/ مؤسسة الرسالة – بيروت ،ط/ أولى، ١٤١٢ هـ .

٢٨- زهرة التفاسير لفضيلة الشيخ /محمد أبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ) ، ط/ دار الفكر العربي .

٢٩- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير لمحمد بن أحمد الخطيب الشربيني (ت: ٩٧٧هـ) ، ط/ مطبعة بولاق الأميرية – القاهرة ، ١٢٨٥هـ .

٣٠- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، لناصر الدين الألباني (ت : ١٤٢٠هـ) ، ط/ مكتبة المعارف ، الرياض ط/ أولى .

٣١- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة ، للشيخ / ناصر الدين الألباني ، ط/ مكتبة المعارف – الرياض ، ط/ أولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢م .

٣٢- سنن ابن ماجه القزويني، (ت :٢٧٣هـ) ، ط/دار إحياء الكتب العربية.

٣٣- سنن أبي داوود لأبي داوود سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِستاني (ت: ٢٧٥هـ) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط/دار الرسالة العالمية ، ط/ أولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م .

٣٤- سنن الترمذي للإمام محمد بن عيسى بن سَوْرة ، الترمذي (ت: ٢٧٩هـ) ، تحقيق / أحمد محمد شاكر ط/ مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ، ط/ ثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥م.

٣٥- السنن الكبرى للبيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت،ط/ثالثة، ١٤٢٤ هـ .

٣٦- شرح النووي على صحيح مسلم للإمام النووي (ت :٦٧٦هـ) ، ط/دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط/ثانية ١٣٩٢هـ .

٣٧- شعب الإيمان للإمام البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) ، ط /مكتبة الرشد – الرياض ، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند ، ط/ أولى١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م .

٣٨- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت: ٣٩٣هـ)، ط/ دار العلم للملايين – بيروت، ط/ رابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

٣٩- صحيح مسلم للإمام مسلم (ت :٢٦١هـ) ط/دار إحياء التراث – بيروت.

٤٠- فتح الباري للحافظ/ ابن حجر العسقلاني الشافعي ، ط/ دار المعرفة – بيروت ، ١٣٧٩هـ.

٤١- فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب محمد صديق خان القِنَّوجي (ت :١٣٠٧هـ) ط/المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت .

٤٢- فتح القدير للإمام محمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ) ، ط/ دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب – دمشق، بيروت ط/أولى – ١٤١٤ هـ.

٤٤- القاموس المحيط للفيروزآبادي (ت سنة ٨١٧ هـ) ، ط/ مؤسسة الرسالة،بيروت ط/ ثامنة، ١٤٢٦هـ.

٤٥- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) ، ط/ دار الكتاب العربي – بيروت ط/ ثالثة ، ١٤٠٧ هـ .

٤٦- لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (ت: ٧٤١هـ) ، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت ط/أولى .

٤٧- اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي (ت: ٧٧٥هـ)،ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان ط/ أولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م.

٤٨- لسان العرب لابن منظور (ت:٧١١هـ) ، ط/دار صادر– بيروت ، ط/ ثالثة،١٤١٤هـ .

٤٩- مجْمع الزَّوائد ومنبع الفوائد لابن أبي بكر الهيثمي (ت :٨٠٧هـ) ، ط/دار المأمون للتراث .

٥٠- مجموع الفتاوى ، لتقي الدين ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)،ط/ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ، ١٤١٦هـ– ١٩٩٥م .

٥١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٢هـ) ، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت ، ط/أولى – ١٤٢٢ هـ .

٥٢- مختار الصحاح للرازي (ت :٦٦٦هـ) ، ط / المكتبة العصرية بيروت ط/خامسة ١٤٢٠هـ .

٥٣- المستدرك على الصحيحين للحاكم (ت :٤٠٥هـ) ، ط/دار الكتب العلمية بيروت ط/أولى

٥٤- المسند ، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١هـ) ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط/مؤسسة الرسالة ط/أولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

٥٥- معالم التنزيل للبغوي (ت: ٥١٠هـ)،ط/دار إحياء التراث العربي، بيروت ط/ أولى، ١٤٢٠ هـ.

٥٦- معاني القرآن وإعرابه للزجاج (ت: ٣١١هـ)، ط/ عالم الكتب– بيروت ، ط/ أولى ، ١٤٠٨هـ.

٥٧- المعجم الكبير لأبي القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ، ط/ مكتبة ابن تيمية – القاهرة .

٥٨- مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ) ، ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت ط/ ثالثة ١٤٢٠ هـ .

٥٩- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، ط/دار القلم، والدار الشامية – دمشق بيروت ط/أولى ، ١٤١٢ هـ .

٦٠- مقاييس اللغة لابن فارس (ت: ٣٩٥هـ) ، ط/ دار الفكر، ط/ ثالثة، ١٤٢١هـ .

٦١- النكت والعيون لأبي الحسن الماوردي (ت: ٤٥٠هـ) ، ط/دار الكتب العلمية – بيروت .

٦٢- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ)، ط/ المكتبة العلمية – بيروت .